مُلَخَّص مُحَاضَرَات تَارِيخ التَّشْريع الإسْلامي للإمام الشَّهيد الشَّيخ مُحَمَّد سَعِيد رَمَضَان البُوطِي رَحِمَه الله تَعَالَى

تلخيص موقع نسيم الشام

مع تتهات للمنسق

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم ملخص محاضرات تاريخ التشريع الاسلامي للإمام الشهيد الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، رحمه الله تعالى الدرس الأول:

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد ..

أهمية دراسة تاريخ التشريع الاسلامي

(مفردات المنهاج الذي سندرسه):

نعني بكلمة تاريخ التشريع الإسلامي: دراسة مولد الشريعة الإسلامية، كيف ولدت الشريعة الإسلامية؟ ومن أي مصدر ولدت هذه الشريعة؟ ثم ماهي ينابيع الشريعة الإسلامية؟ .. ما هي مصادرها الأساسية؟ وكيف يمكن أن نتعرف على مصادرها الأساسية؟ ثم كيف ازدادت هذه المصادر؟. وجود مصادر فرعية تابعة لمصادرها الأساسية، وكيف استتبعت دراسة أحكام الشريعة الاسلامية وجود المذاهب لا سيما المذاهب الفقهية الأربعة؟ .. ما الذي دعا إلى وجودها؟ .. وماهي الضرورة الداعية إلى التمسك بمذهب منها؟ ولمن تكون هذه الضرورة؟ .. وكيف سار الاجتهاد مع تطور تاريخ الشريعة الإسلامية؟

هل وجد الاجتهاد في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أم وجد من بعد؟، والاجتهاد الذي وجد ما هي ضوابطه؟ وكيف واكب الاجتهاد تطور تاريخ الشريعة الإسلامية؟ وهل تقلص هذا الاجتهاد فيما بعد؟، وما هي العوامل التي دعت إلى تقلص الاجتهاد؟ ...

واليوم هل نستطيع أن نقول: أن باب الاجتهاد موصد ولا يملك أن يفتحه أحد؟ أم نقول: إن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه بدون قيد وبدون شرط؟ ..

هذا هو باختصار ما سوف نشرحه في هذا الموضوع ،

الفائدة المتوخّاة الأساسية من دراسة تاريخ التشريع:

الأولى: معرفة مصادر أحكام الشريعة الإسلامية، لكن هنالك مصادر فرعية تابعة لهذه المصادر سنتعرف عليها ... مثل الاستحسان، سد الذرائع، المصالح المرسلة ... سنتحدث عنها لكي نتبين أن هذه المصادر ليست دخيلاً على تاريخ التشريع الإسلامي، وليست دخيلاً على مصدري الشريعة القرآن والسنة بل هذه المصادر التي تُسمى فرعية ولدت وتنامت وتفرعت من المصدرين الأساسيين الذين هما القرآن والسنة.

الفائدة الثانية: أن نتبين الحاجة التي دعت إلى نشأة المذاهب، والحاجة التي تدعونا اليوم إلى التمذهب بمذهب من هذه المذاهب، والموقف الذي ينبغي أن نقفهه من الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، هذه أهم فائدة ينبغي أن يتبينها لا سيما رجل الشارع – العوام من الناس هنالك وهنالك فوائد أخرى سنلاحظها وستتبين لنا أثناء سيرنا في دراسة هذا الموضوع ..

أيها أدق .. أن نقول تاريخ الفقه الإسلامي أم تاريخ التشريع الإسلامي؟:

التعبير الأدق هو تاريخ التشريع الإسلامي، وهل هنالك فرق بين الشريعة الاسلامية وبين الفقه الإسلامي؟ على أن التعبيرين صالحين مع التجوز ولا إشكال في ذلك.

الفرق بين التشريع الوضعي والسماوي:

التشريع الوضعي: هو جملة القوانين والنظم التي تجتمع الأمة على اتخاذها والأخذ بها عن طريق الدولة. هذا القانون يسمى شريعة لكنها وضعية، أي هي من وضع الناس وليست آتية وحياً من عند الله عز وجل.

أما التشريع السّماوي: أي الآتي وحياً من عند الله سبحانه وتعالى.

نحن لا نتكلم عن تاريخ التشريع الوضعي، وإنما نتكلم عن تاريخ التشريع السماوي، أي نريد أن نتكلم عن تاريخ التشريع الذي تلقيناه وحياً من عند الله سبحانه وتعالى.

الوحي هو المصدر الأساسي للتشريع الرباني والينبوع الأول للشريعة الإسلامية، وينقسم إلى قسمين:

وحي متلو: تنزّل علينا ضمن قوالب لفظية من عند الله عز وجل .. أحكاماً معيّنة لكن صبّت في قوالب لفظية وتلقاها المصطفى صلى الله عليه وسلم، ونقلها إلينا. هذا يسمى الوحي المتلو وهذا الوحى يتمثل في القرآن.

وحي غير متلو: يعني وصلنا معاني تتضمن أحكاماً أمرنا الله عز وجل بأن نأخذ بما، جاءتنا عن طريق سيدنا رسول الله والله والله والله الله والله والله والله والله والله والله والله والله عليه وسلم بعباراته، ومن ثم هذا أيضاً نسميه وحي لكنه وحي غير متلو.

والمعرفة لابد في قسم كبير منها أن تعتمد على الوحي، بدون وحي لا تتحقق المعرفة بكل أنواعها، يعني هنالك أمور يمكن أن نعرفها بغير وحي، كالأمور المادية الخاضعة للتجربة والمشاهدة ما أيسر أن تعرفها بدون وحي، مثلا معرفة التربة أهي صالحة للاستنبات أم غير صالحة، سبيل معرفتك لذلك هو التّحربة، لكن هناك أمور غير خاضعة للتجربة والمشاهدة تسمى الأمور الغيبية والسبيل إلى المعرفة هو الخبر الصادق، وهذا ما نعنيه بكلمة الوحى.

كيف تتحقق العدالة الدقيقة المطلقة بين الناس؟

القوانين الوضعية لا تستطيع ذلك .. لكن انظر إلى شريعة الله سبحانه، ليس هنالك منصف يستطيع أن يقول: إن في شريعة الله تعالى – وليس بالفقه فالفقه محل خلاف – ما لم يعد صالحاً للمجتمع الذي نحن فيه.

التشريع في مكة والمدينة:

ما هو التشريع الذي ظهر إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة أي قبل الهجرة؟ التشريع الذي كان ينزل وحياً على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتمثل في العقائد، فيما يتعلق بمعرفة الإنسان لذاته ومن ثم لإلهه الحقيقي الذي ينبغي أن يدين له بالولاء.

والحقيقة أن الإنسان قد يَعجب ثلاثة عشر عاماً والتّشريع كله محصور في أمور العقيدة،.. كون الإنسان عبد لله وأن إلهه واحد لا شريك له وأن إلهه سبحانه هو الذي خلقه وهو الذي يحييه بعد الموت .. المدة التي عاش فيها النبي عليه الصلاة والسلام بعدها أقل ... قد يعجب

إذا التشريع في مكة كان كما قلت لكم خاصاً بالتأسيس وبترسيخ أمور العقيدة ...

أما التشريع في المدينة المنورة فقد تحول إلى بيان أحكام الحلال والحرام - العبادات، المعاملات، أحكام الأسرة، الميراث، ما يتعلق بقانون العقوبات الحدية، التعزير، الأحكام التي تتعلق بالعلاقة ما بين المسلمين وغير المسلمين، الأحكام الاقتصادية وما أكثرها - كل ذلك وُجد وتكامل خلال عشر سنوات.

الدرس الثاني:

أدوار التّشريع الإسلامي وأقسامه:

وهي تتلخص في ستة أدوار لتاريخ التشريع الإسلامي:

- ١. عصر النبي والثيان وأصحابه معه.
- عصر الخلفاء الراشدين والصحابة المهديين مِن بَعده حِيلَفَه.
- ٣. عصر (مدرستي أهل الحديث في الحجاز، وأهل الرأي في العراق)، في نمايات فترة الخلافة الراشدة.
- إلعصر الذهبي) وهو عصر نُضْج منهج أهل السنة والجماعة بظهور مجتهدي: المذاهب الفقهية الأربعة.
- عصر التقليد للمذاهب المعتبرة في الدور الرابع، ووجود مجتهدين في المذاهب ومقارنين بينها.
 - ٦. عصر دور الدسائس التي تمت محاولة إقحامها في بنيان الفقه الإسلامي.

الدور الأول: عصر المصطفى عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام معه

مدته الزمنية:

وهو من حين بعثة النبي والمنتخ وعمره أربعين عام، إلى حين وفاته وعمره ثلاثة وستين عام، في السنة الحادي عشرة من الهجرة، وكانت مدته ٢٣ عام، ثلاثة عشر منها مكية، وعشر مدنية.

وهو الدور الذي يتمثل في حياة النبي الثيالة مع أصحابه.

سلطة التشريع في هذا الدور: كانت لرسول الله عليه السلام، أما مصدر التشريع: فهو الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والوحى الذي كان يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقسم إلى قسمين:

وحى متلو: ويتمثل في القرآن.

ووحي غير متلو: يتمثل في المعاني التي كان ينزل الوحي بها على رسول الله والبيانية فيصوغها المصطفى عليه السلام ببيانه هوَ.

السنة في اللغة: هي الطريقة. التي يتبعها الإنسان لنفسه أو يتبع فيها أناساً آخرين تُسمى سُنّة في اللغة العربية.

أما في الاصطلاح: لكلمة السنة أكثر من معنى:

- في مصطلح الفقه: التي يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها. كسنن الرواتب.

هنالك تقسيم آخر للسُنّة:

- هنالك سنة تتمثل في نبوة رسول الله والمنطقة إذ يبلغنا وحي الله عز وجل. يدخل تحت السنة التبليغية. مثل حرمة الربا.
- وهنالك سنة تتمثل في إمامة رسول الله والله والله والله والله الله عليه وسلم الضوء بالسياسة الشرعية، هذه الأمور الباري سبحانه أعطى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الضوء الأحضر أن يحكم فيها بما يراه المصلحة بوصف كونه رئيس دولة.
- مثل ما يتعلق بسياسة الجهاد القتالي، متى يعلن الحرب على دولة معادية، والصلح، والهدنة .. الغنائم.
- وهناك أمور في محل خلاف بين العلماء هل قالها رسول الله والمينية بوصف كونه مبلغاً عن الله سبحانه وتعالى أم قالها بوصف كونه إماماً. مثلا قال والمينية: "من أحيا أرضاً ميتةً فهي له" .. الإمام الشافعي يرى أنه قال ذلك مبلغاً عن الله سبحانه. الإمام أبو حنيفة قال: النبي قال ذلك بوصف كونه إماماً للمسلمين.

أعجب اليوم من أناس يُظن بهم الخير ونعد بأن لهم ثقافة إسلامية يقولون: لا يجوز أن نبني الدولة على أساس ديني وإنما نبنيها على أساس العدل .. النبي عليه الصلاة والسلام كان رئيس دولة وكانت رئاسته لهذه الدولة على أساس ديني وهو الذي بُعث إلينا بالشريعة الغراء التي هي الدين، إذا حين نقول لا يجوز أن نبني الدولة على أساس ديني وإنما نبنيها على أساس العدل معنى ذلك أن الدين لا عدل فيه.

هل كان هنالك اجتهاد في هذا العصر ..؟

أما رسول الله والله الله المنظمة كان يجتهد عندما يغيب عنه الوحي، ويُسأل عن أمر ديني للتو ينبغي أن يعلم السائل حكمه..

وأما أصحاب النبي الشيئة فعندما كان الواحد منهم عند رسول الله لا سبيل له إلى الاجتهاد، فيسأل رسول الله والميئة الكن عندما يغيب هذا الصحابي إلى بلد أو إلى مكان ما عن رسول الله والميئة ويقع في مشكلة لا سبيل له إلا الاجتهاد، ثم إن المصطفى عليه السلام إما أن يصحح اجتهاده ويقول: أنه على حق أو أن يخطئه ويدلّه على الصواب فيما ذهب إليه.

هل كان النبي عليه الصلاة والسلام يجتهد. وهل يمكن أن يخالف اجتهاده حكم الله عز وجل الذي يَعلمه الله عز وجل في سمائه؟

نعم يجتهد لكن لا يقرّ رسول الله عليه الصلاة والسلام على خطأ فلا بد أن ينزل شرع يبين له الحق في هذا، وكل ما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة لنا حق لكن بينه وبين الله ممكن أن يخطئه سبحانه.

الباري عز وجل قال: ﴿ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِمِن كُمْ النساء: ٥٩ .. ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ الله بأمر إلا أن تُحِبُّون الله كُون الله بأمر إلا أن الله على الله بأمر النسبة لنا حق دائما، لكن هنالك احتمالاً أن لا يوافقه ربه على هذا الأمر فلا يجوز أن نقول: لا بد مِن أن يوافقه الله سبحانه.

ينبغي أن نعلم أن كل ما قضى به عليه الصلاة والسلام ينبغي أن ننفذه ثم نأخذ التصحيح أيضاً منه هو صلى الله عليه وسلم.

الدرس الثالث:

الدور الأول مِن أدوار التشريع الإسلامي، القسم الأول: حياة رسول الله مع أصحابه، القسم الدور الأول مِن أدوار التشريع الإسلامي، القسم

هل القرآن والسنة في مرتبة واحدة وعلى مستوى واحد أم القرآن مقدم على السنة؟

أما مكانة السنة فمكانتها مثل مكانة القرآن، وكالاهما وحي منزل من عند الله عز وجل لكن القرآن وحي متلو والسنة وحي غير متلو. إذاً من حيث القيمة كلاهما واحد.

لكن من حيث الرجوع لاستنباط الحكم: نرجع أولاً إلى القرآن ثم نرجع بعد ذلك إلى السنة، وهذا الترتيب يعني الأدب مع كتاب الله سبحانه وتعالى، وهذا لا يعني أننا إذا وقعنا في مشكلة وأردنا أن نعلم حكم الله عز وجل فيها نرجع إلى القرآن ولا نلتفت إلى السنة إلا إذا بحثنا وبحثنا فلم نجد في القرآن عندئذ نرجع إلى السنة. فلا بد أن نرجع إلى السنة أيضاً لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلْيَكُ ٱلذِّكْرُ لِتُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِلِ إِلْيَهِمْ ﴾ النحل: ٤٤، فالله سبحانه أمرنا أن نعود إلى السنة من حيث هي بيان وشرح للقرآن، فنحن ينبغي أن نعلم أن كتاب الله يقف في الرتبة الأولى ولكن إذا وجدنا الجواب على سؤال طرح علينا أو وجدنا الحل لمشكلة طرحت أيضاً أمامنا في القرآن ينبغي أن نتمم البحث ونعود إلى السنة لنعلم تفصيل ذلك الأمر في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم،

مثلاً القرآن تحدث عن حد الزنا قال سبحانه: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْكُلَّ وَلِحِدِ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلَدَّقَ ﴾ النور: ٢ .. وفي الحديث الصحيح قال المصطفى وَ اللَّهِ الله الله الله عنه وَ اللَّهِ عَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالنَّهِ عَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ) فالنبي عليه السلام أعلن أن حد الثيب أي المتزوج ذكراً أو أنشى الرجم.

ا رواه مسلم

الشطر الثاني من الدور الأول: وهو عصر الصحابة بعد وفاة رسول الله والمنائد

والفرق بين الشطرين من هذا الدور ..؟

هو الخلاف الذي لم يكون موجوداً في عصر الصحابة عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم الخلاف في الأحكام السلوكية أي الشرعية وليس في العقيدة،

أسباب وجود هذا الخلاف:

السبب الأول: تفاوقهم في كتابة السنة: كان ذلك سبباً من أسباب اختلاف الصحابة .. أحد الصحابة كتب حديثاً سمعه من النبي عليه الصلاة والسلام، والآخر لم يكتبه فهذا الفرق بين هذا الصحابي وذاك كان باعثاً على الخلاف في الأحكام الشرعية.

السبب الثاني: تفاوقم في حفظ السنة: فمنهم مَن كان يحفظ الكثير والكثير من أحاديث النبي السبب الثاني: تفاوقم في حفظ السنة: فمنهم مَن لم يتاح لهم ملازمة النبي عليه الصلاة والسلام، مثالاً على ذلك: سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه فقد كان مِن أكثر الناس رواية عن رسول الله وكسيدنا أنس بن مالك، لكن أناساً لم يعيشوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن طفولتهم إلى شيخوختهم، كسيدنا عبد الله بن عباس لما توفي النبي عليه الصلاة والسلام كان يافعاً بعد فلم يتح له أن يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه الآخرون.

السبب الثالث: نسيان الحديث: ففي الصحابة مَن كانت ذاكرهم أقوى مِن ذاكرة آخرين لأسباب مثلا الانشغال بأمور الدول، وقد عانى مِن هذا الانشغال سيدنا أبو بكر ثم عانى منه سيدنا عمر .. من شأنه أن لا ييسر لكل منهما الحافظة النقية الصافية التي تحققت للذين تفرغوا للرواية عن رسول الله والته الله والته الله والته الله والته الته والته والت

السبب الرابع: اتهام الراوي: فربما روى رجل حديثاً عن رسول الله والمنظمة فلم يطمئن الصحابة إلى روايته كسيدنا عمر رضي الله عنه يطمئن لروايته، كما حصل لامرأة اسمها فاطمة بنت قيس لم يأخذ سيدنا عمر بروايتها.

أضيف إلى هذين المصدرين - في هذا الشق من الدور الأول ظهور مصدر الإجماع والقياس.

الدرس الرابع:

أسباب الخلاف بين الصحابة في الشطر الثاني من الدور الأول

تتمة أسباب ظهور الخلاف بين الصحابة في الأمور الاجتهادية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم:

السبب الخامس: هجرة الكثير مِن الصحابة من الجزيرة العربية: بعد أن كثرت الفتوحات، فهؤلاء الذين تفرقوا كان تفرقهم سبباً في عدم تيسير الاجتماع ليتداولو في المسائل المستحدة. فكل منهم يتلقى مشكلات وهذه المشكلات جعلتهم يختلفون بسبب تفرقهم بعضهم عن بعض لكن اجتهاداقم كانت مقبولة قولا واحدا.

السبب السادس: ظهور مشكلات لم تكن موجودة في عصر رسول الله والطبية: ووجدت بعد وفاته، بسبب اتساع الفتوحات الاسلامية وهناك عادات وأعراف غير العادات والأعراف الموجودة في الجزيرة العربية. وهناك مشكلات اقتصادية أو اجتماعية أو حتى دينية ربما، هذه المشكلات اضطر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضعوها في ميزان الرؤية الاجتهادية.

الاختلاف مظمر غنيَّ في الشريعة الاسلامية أم مظمر فقر وإشكال ..؟

لا .. هو مظهر غنى، لأن المصطفى والمسلم على على على عندما كان يجتهد بعض الصحابة إذ كانوا بعيدين عنه لم يوبخ أياً منهم، وقد دلّ على هذا موقفه من أصحابه رضوان الله عليهم يوم بني قريظة فقد أعلن المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد غزوة الأحزاب أن: (لَا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرَيْظَةً) وفهمهم لمراد النبي والمرابقة .

فاختلاف علماء المسلمين في المسائل الاجتهادية مِن هذا القبيل تماماً الكل مثابون، والباري سبحانه وتعالى يكرم هذا وهذا، صحيح أن المخطئ المجتهد له أجر والمصيب له أجران لكننا الآن لا نعلم من هو المخطئ ومن المصيب ولربما أعطى الله سبحانه وتعالى الأجرين لكل منهم، وفضل الله سبحانه وتعالى لا يحد.

١.

ا رواه البخاري.

أضيف إلى هذين المصدرين بعد وفاة رسول الله والمؤلجة مصدراً آخر للتشريع...؟ هو الإجماع .. قضايا اجتهادية خلافية أمكن أن يلتقي المختلفون فيها فيتذاكروا ويتناقشوا وإذا بحم اتفقوا جميعاً على رأي اجتهادي واحد ثم إننا إن نشرنا خبر هذا الرأي الاجتهادي الواحد في الجزيرة العربية وغيرها وكل أصحاب رسول الله الموجودون سمعوا نبأ هذا الأمر الاجتهادي وكلهم اتفقوا أصبح اسمه اجماعاً وهذا الاجماع قوته مثل قوة النص القرآني الواضح الدلالة، لأن هذا الاجماع لا يمكن أن يتم إلا على أساس دليل جمعهم على رأي واحد.

الدرس الخامس:

الدور الثاني مِن أدوار التشريع والجديد الذي حصل للتشريع والقرآن والحديث والاجتهاد؟ الدور الثاني من أدوار التشريع: عصر الصحابة (في زمن الخلفاء الراشدين) من أدوار التشريع بعد وفاة النبي والمنائل ...

مدته الزمنية:

بدأ بوفاة المصطفى والمنتقل ومن حين تولي سيدنا أبو بكر الصديق والمنتقل المخلافة، في سنة المنتقل المنتق

الجديد في هذا الدور بالنسبة للقرآن:

في عهد سيدنا أبو بكر رضي الله عنه تم جمع القرآن وكتابته مرة أخرى من أجل أن يجمع بين غلافين، فالقرآن كان مجموعاً في حياة النبي والمنافق عن طريق كُتاب الوحي، لكن لم يكن مجموعاً بين دفتين، فهذا هو العمل الذي قام به سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، وكلف بذلك زيد بن ثابت رضي الله عنه، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن كانت خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه، عندئذ قام سيدنا عثمان بنسخ سبعة نُسخٍ على ضوء ما كتبه سيدنا زيد رضي الله عنه، ووزعها في أمهات الأمصار وهذا أجل عمل في الواقع قام به سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه في خلافته.

الجديد في هذا الدور بالنسبة للسنة:

لم يحصل شيء حديد يتعلق بكتابة السنة أو ضبط روايتها، ولكن رأى جل الصحابة أن سنة المصطفى وانتشار الإسلام في كثير من الأمصار، فهؤلاء المسلمون يتلقون حديث المصطفى والمسلمين الله يستطيعوا أن يحفظوا هذه الأحاديث التي يتلقونها فربما خانتهم الحافظة فوجد جل أصحاب رسول الله والمسلمين أن مِن الخير أن تقل رواية الحديث عن النبي والمسلمين سيدنا أبو بكر واحد مِن المتحمسين لذلك فجمع في أولى

(إنكم تختلفون في كثير مِن المسائل وإن الذين سيأتون مِن بعدكم سيكونون أشد اختلافاً منكم فإذا ذهبتم واتجهتم إلى حيث تذهبون فأقلّوا من رواية الحديث ووجهوا الناس إلى كتاب الله سبحانه وتعالى ما وسعكم ذلك)، ووقف ذات الموقف سيدنا عمر رضي الله عنه، وكذلك جلّ الصحابة. وهذا لا يعني الإعراض عن الحديث والرجوع إلى القرآن فقط وعدم تحكيم السنة النبوية عندما تثبت ..؟ ففي الدور الثاني من أدوار التشريع لم يحصل أي ضبط للرواية كما سنحد في الدور الثالث لكن الذي حصل هو هذه الوقاية السلبية.

أيام خلافته ثلة كبيرة مِن الصحابة الذين كانوا ينتشرون في الآفاق والبلاد الإسلامية وقال لهم:

الجديد في هذا الدور بالنسبة للاجتهاد:

لأن الجدّ في هذا الموضوع يقتضي أن يكون متجهاً إلى حل معضلات واقعة فعلاً. وتخيل مشكلات ستقع بعد في ميزان أصحاب رسول الله عليه السلام وفي ميزان المنطق أيضاً ترفاً، و(مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرَّكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ).. وفي سلم الأولويات يعتبر سؤال المرء عما لم يحصل بعد مما لا يعنيه. وهذا مِن التواضع والحيطة في دين الله سبحانه وتعالى عند أصحاب رسول الله والمرابعة.

فيما بعد: اتسعت رقعة الإسلام اتساعاً كبيراً واندلقت المشاكل واختلط الواقع بالمتوقع وإذا بعبد الله بن مسعود يُسأل فيقول: (كنّا ذات يوم لا نجيب عما لم يقع بعد، ولكنّا نظرنا فوجدنا أن الأمور اختلطت)، فبدأ يجيب عما يُسأل عنه وإن لم يتيقن حدوثه.

أما طريقة الصحابة في الاجتماد في هذا العصر:

كانت طريقة الصحابة في الاجتهاد هو ذات المنهج الذي تلقفه أئمة المذاهب فيما بعد، ومن المهم أن نعلم هذا وسنتحدث عنهم في الدور الآتي .. وأصحاب رسول الله تلقفوا هذا المنهج بطريقة أو بأخرى من سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ا رواه الترمذي.

كانوا يرجعون أولاً إلى القرآن أدباً، ثم إنهم يعودون في الدرجة الثانية إلى السنة لتبيين ما قد وقفوا عليه في القرآن، ثم بالرجوع إلى كبار الصحابة وما اجتهدوا فيه كعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت وغيرهم. ولَعلّهم لم يجدوا مطلبهم أيضاً عندئذ يجتهدون، فالواحد منهم يدلي برأيه، وليس كلمة الرأي هنا هو يعنى الرأي المزاجى معاذ الله .. بل معناه أن يقيس الأمور على مشبهاتها.

و الحكم الذي كان يرتئيه هذا أو ذاك لم يكن الواحد منهم يدعي أنه ينطق باسم الله وأنه قد جاء بحكم شرعه الله عز وجل، ومن ثَم لا يتعصب الواحد منهم لغيره.

نتيجة لذلك كثر الاختلاف في أحكام الشريعة الاسلامية في هذا الوقت.

ومِن نماذج الخلافات .. كقصة عبد الله بن مسعود وفتواه في المرأة التي مات عنها زوجها ولم يدخل بما، واختلافه في الحكم مع سيدنا على رضى الله عنه.

ومسألة أخرى وقع فيها الخلاف بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: حكم طلاق الفرار أثناء مرض الزوج، فحكم سيدنا عمر في المرأة التي طلقت طلاق الفرار على أنها تعتد وترث منه على الرغم مِن طلاقها لأنه طلاق الفرار واشترط إن مات الزوج قبل انتهاء عدة الطلاق .. وخالفه سيدنا عثمان رضى الله عنه على أنها ترث منه مطلقاً لأن سبب الطلاق هو مرضه.

الدرس السادس:

بعض النّماذج للخلافات التي كانت في عصر الصحابة (الدور الثاني)، أسباب اختلاف الصحابة

من أمثلة المسائل الاجتمادية واختلاف الصحابة فيما:

قصة فاطمة بنت قيس واجتهاد سيدنا عمر فيها التي ذكرت في درس سابق.

مثال آخر .. أن سيدنا أبو بكر لا يورث الإخوة مع الجد لأنه يجد أن الجد بمثابة الأب فإن وجد الأب مع الإخوة فالأب يحجب الإخوة، فكان سيدنا أبو بكر يرى أن الجد مع غياب الأب يرث ويحجب الإخوة كالأب .. أما سيدنا عمر فخالف سيدنا أبو بكر في الاجتهاد ..

كانت هنا المسألة الاجتهادية طريقها القياس فقد قاس سيدنا أبو بكر الجد على الأب، أما سيدنا عمر لم يكن يرى مبرراً لهذا القياس لما يرى من أن قرب الإخوة إلى الميت ليس أقل من قرب الجد ..

ومسألة قياس أخرى ما يتعلق بالقُرء، فكان سيدنا عمر وابن مسعود يريان أن المراد بالقُرء هو فترة المحيض، وكان زيد بن ثابت وجمع من الصحابة يرون أن فترة القُرء هي الطهر، وأياً كان الأمر النتيجة واحدة.

وندرك بذلك أن أسباب اختلاف الصحابة عن بعض في الأحكام الاجتمادية: السبب الأول: هو اختلافهم في فهم النص كاختلافهم في المراد من كلمة القرء.

السبب الثاني: هو اختلافهم في ثبوت النص، فالنص مفهوم لا خلاف فيه لكن أحدهم يرى أن النص ثابت وآخرون يشكون في صحته، فمن ثبت عنده صحة الحديث بالنسبة له يجب الاعتماد عليه في النص أما من يشك في صحته فلا يصح عنده الاعتماد عليه في الحكم.

والسبب الثالث: الخلاف في القياس هل هو قياس صحيح أم قياس غير صحيح؟ فالرأي يجب أن يكون له ضوابط، وقد تكون في بعض الأحيان هذه الضوابط في محل خلاف.

مَن هم أشهر المفتين في الدور الثاني؟:

الخلفاء الأربعة، يليهم عبد الله بن مسعود، عبد الله بن عمر، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم، هؤلاء من أشهر من كانت تعود إليهم الفتوى في عصر رسول الله المرابعة المرابعة .

فالمذاهب ولدت في عصر الصحابة أي بعد وفاة رسول الله والمرابط الله والمرابط الله المرابط الله المرابط الله بن عباس كلما غم عليه أمر ذهب إليه، وآخر يستريح إلى فتاوى زيد بن ثابت ومِن المعلوم أن رسول الله عليه الصلاة السلام قد أثنى عليه، وآخرون يلجؤون إلى خليفة رسول الله والمرابط المعلوم أن رسول الله عليه الصلاة السلام قد أثنى عليه، وأخرون يلجؤون إلى خليفة رسول الله في عصره، فحين يسأل أحدهم إلى من يستريح له في الحكم فيقول: أنا مذهبي مذهب حليفة رسول الله الله بن عباس فكلما أشكل علي أمر ذهبت إليه، وآخر يقول: أنا مذهبي مذهب خليفة رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذاً كان في ذلك العصر مذاهب.

من هذا نعلم أن المذهبية ليست بدعة ظهرت بسبب وجود الأئمة الأربعة: الإمام الشافعي والإمام أبي حنيفة والإمام أحمد والإمام مالك، فكثيرون ربما في هذا العصر يعتقدون أن المذاهب بدعة لعدم وجود المذاهب في عصره عليه الصلاة والسلام، ونحن نجيبهم بقولنا: هل كان في عصر

النبي عليه الصلاة والسلام اجتهاداً؟! .. لا لم يكن موجوداً وإنما وجد بعد وفاته عليه السلام، إذاً هل من المعقول أن نقول عنه بدعةً أيضاً .. ؟؟!

وقد أعطى رسول الله عليه الصلاة والسلام الضوء الأحضر حين قال: (إِذَا اجْتَهَدَ الْحُاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرً وَاحِدٌ)، أي أنه بكل الأحوال مأجوراً إذاً الاجتهاد مشروع.

وعندما يكون الناس فئات، ومنهم علماء بلغوا مبلغ الاستنباط مِن القرآن والسنة بوسائلها الدقيقة، ومنهم مَن لم يتح لهم تعلم ذلك بسبب ظروفهم المعاشية التي منعتهم وحالت بينهم وبين الوصول إلى ذلك، إذا لا بد أن تظهر المذهبية فهؤلاء يستفتون أولئك – الجُهَّال يستفتون العلماء والعلماء يختلفون باحتهاداتهم وكلُّ مِن أهل عصرهم يلحؤون إلى مَن يرتاح إلى مذهبه الذي يُفتي به فكانت المذهبية، لكن كانت المذهبية كثيرة ثم إنها فيما بعد تجمعت في أقل قدر مِن المذاهب لأسباب هامة سنتحدث عنها فيما بعد.

لم يكن في عصر الصحابة - الدور الثاني - من يتطرفون فيقفون عند حرفية النّص ويُغلقون أذهانهم عن فهم علل الأحكام كما وُجد فيما بعد ..؟

لم يكن مِن الصحابة مَن يؤثر العلل والمصالح على اتباع النصوص عندما يرى تعارضاً بين النص والمصلحة وهذا أيضاً تطرف.

١٦

ا من مستخرج أبي عوانه، وقد رواه البخاري بعبارة قريبة من ذلك.

الدرس السابع:

الدور الثالث من أدوار التشريع الإسلامي: عصر (نشأت مدرستي أهل الحديث في الحجاز، وأهل الرأي في العراق)، في نهايات فترة الخلافة الراشدة

مدته الزمنية:

ويبدأ الدور الثالث من بداية خلافة سيدنا علي بن أبي طالب ويلئ وظهور الفتن في تلك الفترة، ويمتد إلى أوائل القرن الثاني للهجرة سنة ١٠٠ هـ، أي لمدة ٦٠ عام تقريباً.

انتهينا من الحديث عن الدور الثاني من أدوار التشريع الذي يبتدأ بوفاة سيدنا رسول الله والله والله والله والله والله عنه عام" واحد وأربعين للهجرة "،

فهذه الفترة هي فترة الدور الثالث من أدوار التشريع ..

الخصائص التي برزت في هذا الدور مما لم يكن موجوداً من قبل:

الخصيصة الأولى: ظهور الغلق الديني: مِن حرّاء السياسة، سببه موضوع الخلاف فيما يتعلق بالخليفة وهو سيدنا علي. لأنه عندما بويع سيدنا علي رضي الله عنه استشرى في أمر الخليفة أهو على أم معاوية رضى الله عنهما، ظهر هذا الغلو في موقف الخوارج ...

الخصيصة الثانية: تفرق علماء الصحابة خارج الجزيرة العربية: وكان سيدنا عمر يمنع العلماء من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام من التفرق حتى يجد حاجته فيهم عندما تظهر مشكلات يريد استشارتهم فيها لكن سيدنا عثمان في عصره سمح بذلك.

الخصيصة الثالثة: انتشار الرواية عن النبي عليه الصلاة والسلام: وشيوع رواية الحديث بكثرة دون ضابط.

الخصيصة الرابعة: ظهور ما سمي آنذاك بمدرسة الحديث، وكان مركزها في الحجاز، ومدرسة الرأي، وكان مركزها في العراق.

الخصيصة الخامسة: ظهور تدوين الحديث: حفظاً للحديث مِن شرود بعض النّاس عن ضوابط الرواية وحماية للحديث مِن بعض المتدخلين المتسربين مِن الزّنادقة وأمثالهم.

حول الخصيصة الأولى: ظهر الخوارج في هذا الدور ولعلكم تعلمون سبب وجودهم وسبب غلوهم وتطرفهم، عندما أراد معاوية مِن سيدنا علي أن يجنحا إلى التحكيم، ورفع جماعة معاوية رضي الله عنه القرآن فوق الرماح، فاستجاب سيدنا علي رضي الله عنه لهذا الأمر، لكن طائفة من جماعة سيدنا علي لم يتفقوا معه على ذلك فهذا الانشقاق هو الذي ولَّد مَن يُسمّون بالخوارج .. ومعنى الخوارج: أي هم الذين خرجوا على سيدنا علي رضي الله عنه بل اتهمه المتطرفون منهم بالكفر. وفرقة الشيعة لم تكن موجودة في الدور الثاني نحائياً لا في عصر أبي بكر رضي الله عنه ولا في عصر عمر ولا عثمان ولا في عصر سيدنا علي في بادئ الأمر. وقد بايع سيدنا علي رضي الله عنه سيدنا أبو بكر وبايع سيدنا عمر وبايع سيدنا عثمان رضي الله عنهم، ثم ظهرت هذه الفرق فيما بعد.

حول الخصيصة الثانية: لاحظوا كيف توازعت البلدان علماء الشريعة الكبار:

ومن أبرز الفقهاء في المدينة المنورة: سيدنا عبد الله بن عمر، وسيدنا أبو هريرة، وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنهم.

ومن أبرز الفقهاء الموجودين في مكة: سيدنا عبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت كذلك، وآخرون رضى الله عنهم.

ومن أبرز من وجد في مصر: سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وغيره.

أما في بلاد الشام: معاذ بن حبل، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، فقد كان لهم دور عظيم هناك.

أما من جمعتهم الكوفة: فكان هناك أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن مسعود، وكان أيضاً ثُلّة من تلاميذ سيدنا علي رضي الله عنهم أجمعين، وقد ترعرع على أيديهم عدد مِن التابعين، مِن أبرزهم ابراهيم النخعي ..

حول الخصيصة الثالثة: انتشار الرواية عن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام. ولم تكن هنالك ضوابط للرواية عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعوامل ذلك كثيرة:

أولاً: كثر الزنادقة: الذين تظاهروا في الدحول بالإسلام وكانوا يضمرون خلاف ذلك فلم يكن كل من أسلم في الشام ومصر والبلاد الأخرى صادقين في إسلامهم، فقد كانوا هؤلاء يؤلفون الأحاديث

المختلقة من عندهم ويختلقون لها أسانيد وينسبونها إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام لكي يشككوا الناس في الدين.

ثانياً: ظهرت مظاهر الغلو: — ظهور الخوارج والشيعة — فهذا الغلو وهذا التطرف دفع هؤلاء إلى أن يخترعوا الأحاديث من أجل أن ينتصروا لأفكارهم.

عبد الله بن لهُيعة يقول: رأيت شيخاً من شيوخ الخوارج - أي كان من الخوارج ثم أسلم - قال: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، كنا إذا هوينا شيئاً جعلنا له حديثاً.

ثالثاً: ففي البلاد النائية عن الجزيرة العربية كان الناس يتشوقون إلى أن يسمعوا حديثاً عن رسول الله والمائية فيأتي من يجمع الناس من حوله ويعلم أنه إن جاءهم برواية عن رسول الله والمائية ويقولون: نحن من حوله ليسمعوا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيختلقون أحاديثاً عنه والمائية ويقولون: نحن نكذب عن رسول الله عليه السلام لا عليه!

هذا الذي دفع إلى شيء اسمه مدرسة الحديث في الحجاز ومدرسة الرأي في العراق ..

الدرس الثامن:

خصائص الدور الثالث:

يمتاز الدور الثالث بأربع خصائص وهي:

الأولى: ظهور الفرق الإسلامية: التي لم تكن موجودة في الدور الثاني ولا في الدور الأول. الثانية: انتشار الصحابة في البلاد العربية التي تم فتحها.

الثالثة: كثرة الرواية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام بدون ضبط للرواية.

الرابعة: هي ظهور ما يسمى بمدرستي الحديث في الحجاز والرأي في العراق.

وسنتحدث عن هذه الخصائص الأربعة:

الخاصة الأولى: ظمور الفرق:

وأولها ظهور الفِرق: ولن نتحدث عن سائر الفرق فلا شأن لنا بمذا، لكننا سنتكلم عن فئتين ظهرتا في هذا الدور و للحديث عنهما صلة قوية في موضوعنا وهو تاريخ التشريع الإسلامي. الخوارج

والشيعة .. اشتبكت الحرب بين جيشي معاوية وعلي رضي الله عنهما في معركة صفين من بلاد الشام واشتد أوارها في الواقع، ولن نتحدث الآن عن سبب ذلك، لكننا نريد أن نتحدث عن نشأة الخوارج.

أولا – فرقة الخوارج:

كيف نشئ الخوارج وما هو سبب نشأتهم؟.

عندما رأى جيش معاوية رضي الله عنه أنهم ربما سيبوؤون بالفشل أو الإخفاق جنحوا إلى خطة، فرفعوا المصاحف على الرماح إعلاناً منهم بالرغبة في الهدنة، سيدنا علي فكر في الأمر فرأى أن يحقن الدماء وأن يستجيب لهذه الهدنة التي لا يعلم خلفياتها، لكن أصحابه انقسموا إلى فريقين فريق مؤيد وفريق آخر غير مؤيد.

القسم الكبير كانوا مؤيدين لسيدنا علي رضي الله عنه، لكن القسم الآخر رغبوا عن هذه الهدنه وتوجسوا خيفة منها، ولكن سيدنا علي رضي الله عنه استجاب لرأي الأكثرية وقبل بالهدنة. هؤلاء الذين انسلقوا عن سيدنا علي رضي الله عنه وغضبوا لعدم التفاته إلى رأيهم وانقياده لرأي الأكثرية هم الذين شموا فيما بعد بالخوارج، وسمي الذين أحدقوا به وأيدوه آنذاك بالشيعة، لكن مسمى هذا الاسم لم يتبلور ولم ينضج ولم تتجلّى مبادئه إلا فيما بعد.

وإلى جانب هاتين الفئتين كان جمهور المسلمين السواد الأعظم (أهل السنة والجماعة).

وهكذا شيئاً فشيئاً أصبح لكل مِن فتي الخوارج والشيعة منزع ديني خاص ورؤى اجتهادية خاصة بهم سواء فيما يتعلّق بالعقيدة أو بالأحكام.

الخوارج: هم في بادئ الأمر كانوا مؤيدين لسيدنا علي ثم إنهم انشقوا عن التأييد، وكانت رؤيتهم احتهادية فقط، لكن العصبية تغلبت فيما بعد ووجدوا أن سيدنا علي لم يخطئ فقط بل ارتكب معصية كبرى لقبول الهدنة التي رفع شعارها معاوية رضي الله عنه، عندئذ عندما تجلت العصبية في كيان هذه الفرقة وكانت هي التي تقود وهي التي توحي إليهم بمواقفهم تبنوا هؤلاء الناس أفكاراً وعقائد ورؤى فقهية مستقلة جعلت لهم شخصية متميزة، أولاً ساقتهم العصبية إلى استنكار ما فعله سيدنا على بل إلى التخلص من سيدنا على رضي الله عنه فقتلوه، ثم إنهم انطلقوا من رؤى اجتهادية

خاصة بمم وعقائد متميزة عرفوا بها، نذكر الآن خلاصتها بالقدر الذي يتعلق بموضوعنا في تاريخ التشريع.

خلاصة عقائد وأحكام الخوارج:

أولاً: قرروا أن مرتكب المعصية يكفر إلا أن يتوب فالتوبة تمحو أثر كفره لا ذنبه: وبما أن سيدنا على بنظرهم قد ارتكب معصية في جنوحه إلى الهدنة كفروه وبرروا قتله على هذا الأساس، بل كفروا كثيراً من الصحابة أيضاً الذين أيدوا سيدنا على رضى الله عنه.

ثانياً: وجوب الخروج على الإمام العاصي أياً كان: ما دام قد انحرف عن الجادة في نظرهم ولا يكفى النّصيحة له ولا التقدم إليه بالتّذكير والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بل يجب الخروج عليه. ثالثاً: الطاعات التي فرضها الله على عباده المسلمين جزء لا يتجزأ من الإيمان: فالصلاة التي أمر الله تعالى بها المسلمين والصوم والزكاة و و و ... ولذلك لو أن الإنسان ترك طاعة من هذه الطاعات الواجبة فقد اهتز ركن الإيمان ومن أجل ذلك يكفرون الإنسان بالمعصية.

رابعاً: قولهم بأن المجتمع الإسلامي لا يحتاج إلى إقامة دولة ولا يحتاج إلى وجود إمام للمسلمين: ذلك لأن شعارهم هو لا حُكم إلا لله، وإذا وجد إماماً للمسلمين يحكمهم يكون هذا الإمام بتصورهم شريكاً لله تعالى في الحكم ولذا فلا داعي إلى إمام للمسلمين.

ثم إن هناك فئات تفرعت من الخوارج ولعل أشدهم تطرفاً - الحروريون - ولكن هؤلاء فيما بعد سادوا بعد أن بادوا ولعل فئة واحدة بقيت منهم إلى الآن وهي الفئة التي تسمى - بالإباضية - ويقيمون أكثرهم في شمال إفريقيا الآن، ولكن هذه الفئة هي أقرب إلى الاعتدال، فهذا التطرف والشذوذ الذي كان معروفاً بالخوارج القدامي هم بعيدون عنه وهم قريبون في الحقيقة من أهل السنة والجماعة.

ثانياً – فرقة الشيعة الرافضة:

نشأة الشيعة:

نواة الشيعة نشأت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما اجتمع أصحاب رسول الله وسلم الله والمالية والمالية

لكن هذه النواة دفنت عندما تم إجماع المسلمين في تربة الإجماع، ولم يعد يظهر لمعنى التشيع أي صدى نمائياً لا في عهد سيدنا أبو بكر ولا في عهد سيدنا عمر ولا في عهد سيدنا على، إلا بعد معركة صفين بعدة أيضاً، لكن عندما كانت معركة صفين وحصل هذا الذي ذكرناه مما لا نريد إعادته استيقظت مشاعر التشيع لسيدنا علي رضي الله عنه وعادت النواة التي دفنت في تربة الإجماع ردحاً من الزمن تتغذى. فبعد معركة صفين عادت نواة التشيع تتغذى وتنامت ثم تنامت ووجدت في هذا الدور ما يسمى بفرقة الشيعة.

تتلخص أفكار الشيعة التي ميزتهم عن غيرهم في النقاط التالية:

أولاً: اعتقادهم أن الخلافة ليست من الأمور التي يتم البحث عنها عن طريق الاجتهاد والشورى: وما إلى ذلك بل الخليفة لا بد أن يكون منصوصاً عليه إن في القرآن أو السنة.

ثانياً: الخليفة لا بد أن يكون معصوماً: عن ارتكاب أي إثم كشأن المصطفى رَبَيْنَاتُهُ وهذا التصور أيضاً جاء أخيراً بعد وفاة سيدنا على رضى الله عنه.

ثالثاً: اعتقاد أن كل مَن سبق علياً بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام غاصب للخلافة وللحق الشرعي: لأن الخليفة الذي كان يجب أن يكون بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام هو سيدنا علي رضي الله عنه والاجتهاد والشورى غير وارد لأن المسألة مسألة نص فهم يعتقدون أن هنالك نصاً على ذلك، لكن المهم أن تعلموا أن هذه المعتقدات ولدت في رؤوسهم بعد وفاة سيدنا علي رضي الله عنه.

رابعاً: ومن معتقداتهم أن الخلافة بعد سيدنا علي رضي الله تعالى عنه ينبغي أن يكون لأكبر أولاده من السيدة فاطمة: وهو الحسن رضوان الله عليهم، لكن سيدنا الحسن لم يكن مهتماً بعد بالخلافة ولذلك تنازل عنها لمعاوية رضي الله عنهم، وسكت الشيعة آنذاك إلى أن توفي معاوية وتبوأ عرش الخلافة من بعده ابنه يزيد، عندئذ هاجت الشيعة وغيرها ورُشّح سيدنا الحسين وتقدم للخلافة والذي حصل أنه قتل في كربلاء، فهذه باختصار خلاصة معتقدات الشيعة لكن لما قتل سيدنا الحسين انقسم الشيعة إلى فئات كثيرة.

الدرس التاسع:

خصائص الدور الثالث:

الخاصة الثانية: شيوع رواية الحديث:

الأمر الثاني الذي يمتاز به هذا الدور: هو شيوع رواية الحديث بعد أن كان هناك تحفّظ كبير في روايته وقد قلنا بأن أبو بكر رضي الله عنه كان يحذر مِن الاسترسال في الرواية عنه وكذلك سيدنا عمر فكان هنالك تحفّظ والمراد منه الانضباط الشديد فيما يتعلق بالرواية عن رسول الله سيدنا عمر فكان هذا الدور بدأت تشيع الرواية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام والسبب هو:

- تكاثر الحاجات التي تلح على المسلمين لا سيما في الأماكن النائية على معرفة حكم الله تعالى فيها: فالقرآن يوضح ويبين الأحكام لكنه في كثير من الأحكام يعهد إلى المصطفى المراقية المسلمين والشرح، إذا السنة النبوية أوسع بكثير من القرآن.

وبرجوع هؤلاء إلى أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام لمعرفة الأحكام يضطر الصحابة بذلك إلى أن يرووا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ليبينوا لهم الأحكام.

- الصحابة يتفاوتون في الرواية عن المصطفى والمنطقة واتساعاً: ففيهم المكثر في الرواية عن المصطفى عليه الصلاة والسلام وفيهم المقِل فمثلاً: أبو هريرة وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأنس بن مالك وعائشة رضي الله عنهم كانوا من المكثرين للرواية عن المصطفى عليه الصلاة والسلام.

العوامل التي ساعدت على كثرة الرواية عن المصطفى على:

أولاً: طول العمر للصحابي وإسلامه المبكر: .. أنس بن مالك ممن عمّر كثيراً.

ثانياً: طول الصحبة والملازمة للمصطفى عليه الصلاة والسلام: ... كسيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وأنس بن مالك خادم المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ثالثاً: جمع الحديث من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام: فليس كل أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يروون إلا عن المصطفى عليه السلام، فمنهم من يروي عن أمثاله من

الصحابة فمثلاً: سيدنا عبد الله بن عباس حين توفي عليه الصلاة والسلام كان لا يزال صغيراً شاباً فلم تتح له مدة طويلة تمكنه من الإكثار من المصطفى عليه الصلاة والسلام لكنه كان يأخذ من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهوكان من المكثرين للرواية،

والصحابة كلّهم عدول فإن ثبتت الصحبة لأحدهم مع رسول الله عليه السلام يتمتع بالعدالة في ذلك والذين صنفوا الصحابة وقسموهم إلى عادلين وغير عادلين هؤلاء دَفعتهم العصبية الرعناء إلى هذا.

هنالك من الذين يتربصون بالإسلام يرون أن سيدنا أبو هريرة كان من المكثرين للرواية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيركزون على اختلاق اتحامات من أجل أن يشككوا بعدالة ومصداقية سيدنا أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، لأنهم إن نجحوا في انتزاع الثقة بقلوبنا منهم فيكون بالتالي قسم كبير من أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام نرتاب ونتشكك فيها، إذاً بنيان الشريعة الإسلامية سيهتز وبالتالي شيئاً فشيئاً يتهاوى وهذه خطة منهم مرسومة، لذلك قد تجدون مؤلفات عن سيدنا أبي هريرة كلها هجوم عليه وهي مختلقة اختلاقاً غريباً في حقه رضى الله عنه ... فاحذروهم.

الخاصة الثالثة: ظهور الوضاعين:

الشيء الثالث: الذي يُعد من خصائص هذا الدور الثالث: هو ظهور الوضاعين الذين كانوا متفرغين إلى وضع الحديث عن المصطفى التينية.

الثغرة التي استطاعوا بما أن يضعوا الحديث على المصطفى عليه الصلاة والسلام: هي عدم تدوين الحديث إلى ذلك العهد فقد كان الحديث يروى اعتماداً على الذاكرة.

وعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية وبالتالي اتسعت الرقعة الإسلامية أصبح وجود الحديث على الأفواه دون أن تُسجّل هذه الأحاديث وتدوّن أصبح ظاهرة خطيرة، المجتمع الإسلامي كان ضيقاً وكان أفراده يكادون أن يكونوا محصورين، لكن الآن انتشر الإسلام في البلاد ووجد الزنادقة والملاحدة والذين كانوا يتظاهرون بالإسلام ويضمرون الكيد له.

العوامل التي جعلت هؤلاء الناس يدسون على رسول الله عليه الصلاة السلام.?؟

العامل الرئيسي لذلك هو عداوقم للإسلام: والأحقاد التي كانت تغلي بما قلوب كثير ممن غُلب على أمرهم، فكثيرون منهم تظاهروا بالإسلام لكنهم كانوا زنادقة .. والوسيلة الدّس على المصطفى عليه السلام ووضع الأحاديث الكاذبة إن كان في العقائد أو في الأحكام الفقهية أياً كانت.

وهناك عامل آخر: أصبحت ساحة الوضع وسيلة مفتوحة لأصحاب الفرق الجانحة الذين يريدون أن ينتصروا لمعتقداتهم الجانحة: إذاً معتقداتهم التي يتبنونها مبنية على عصبية. وكذلك عصبية كثير من أصحاب الفرق لمعتقداتهم من أجل أن يحصنوا معتقداتهم بالأدلّة فيخترعون أحاديث على لسان المصطفى المنابية.

هنالك عامل آخر: كان يمارسه المغفلون بالحقيقة يضعون أحاديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام في فضل بعض العبادات وحين يسأل هؤلاء عن سبب وضعهم أحاديثاً عن رسول الله عليه الصلاة والسلام يكون جوابهم: نحن نكذب لرسول الله عليه الصلاة والسلام لا نكذب عليه.

إذاً عوامل الوضع هي:

- ١. العداوة الدينية.
- ٢. العصبية المذهبية.
- ٣. متابعة أهواء بعض الخلفاء والأمراء: فكان بعضهم يجالس الأمراء وينظر ما هي هواياتهم
 فيخترعون حديثاً ينسجم مع هواياتهم.
- ٤. لكن أهم العوامل وأخطرها هو: عامل الزندقة، يروي حماد بن زيد رضي الله عنه يقول: وضعت الزنادقة مالا يقل عن أربعة آلاف حديث يكذبون فيه على رسول الله والكن على أربعة آلاف حديث يكذبون فيه على رسول الله والكن على غير عمولاء فيما قصوا إليه ...؟

لا .. بل في الواقع هذا الذي حصل أيقظ أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومن ثم التابعون الذين جاؤوا من بعدهم إلى القيام بمهمة علمية كبيرة جداً جعلت العالم كله يذهل لهذا

التحصين العجيب العلمي الحضاري لحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم أصبح هذا الأمر نهجاً للتاريخ كله.

الدرس العاشر: متابعة خصائص الدور الثالث

الخاصة الرابعة: مدرسة الحديث في الحجاز ومدرسة الرأى في العراق:

الظواهر الثلاث – السابقة – التي تميز بها الدور الثالث استلزم نتيجة رابعة وهي وجود تيارين – من العلماء – أحدهما في الحجاز وهو الذي سمي بمدرسة الحديث والآخر في العراق وهو الذي سمي بمدرسة الرأي أي مجموعة علماء من الصحابة ومن التابعين تميزوا باجتهاد الرأي، في حين كانت هنالك ثُلة كبيرة من العلماء متمركزين في الحجاز عرفوا بمدرسة الحديث.

كانت مدرسة الحجاز تعتمد دائماً على النص ولا تتجاوز النص إلى الرأي الاجتهادي إلا عند الضرورة القصوى لذلك سميت بمدرسة الحديث، والمدرسة التي كانت في العراق كان اعتمادها في الغالب على الرأي ولا تجنح إلى النص إلا بعد اليقين التام بأن هذا النص الصحيح وبأن النبي عليه الصلاة والسلام فعلاً قد قاله.

أما عوامل ظهور مدرسة الحجاز هي:

أولاً: غناهم بالحديث وكثرة وجود حفاظ الحديث فيها.

ثانياً: قلة المسائل والمشاكل والأمور الحديثة: وبقاء الأمور نسبياً على ما كانت عليه في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام فلم يكونوا بحاجة ماسة إلى الاجتهاد في الرأي.

ثالثاً: تحيب هؤلاء العلماء - علماء الحجاز - من الاقتحام إلى الأحكام الشرعية دون دليل من النص: فلم يقتحموا أبواب الاجتهاد والرأي حفظاً على الحديث والقرآن.

رابعاً: هذا إلى جانب أن درايتهم بقواعد استنباط الأحكام من النصوص لم تكن قد نضجت بعد: فلم يتمرسوا بعد على أصول الاجتهاد ودعائمه وشروطه.

عوامل جنوم علماء العراق للرأي ..؟

أولاً: قلة الأحاديث التي بوسعهم أن يعتمدوا عليها: فقد كانت الأحاديث الكثيرة في الحجاز حيث النبوة أما علماء العراق فقد كانوا فقراء بالنسبة لعلماء الحجاز بالنسبة للحديث.

ثانياً: ظهور الكذابين على رسول الله والطبير في العراق: اضطر هؤلاء العلماء أن يحتاطوا في الرواية. ثالثاً: كثرة المشاكل والأمور المستجدة: لأنها لم تكن بلاد إسلامية وإنما دخلها الإسلام وانتشر فيها.

رابعاً: هذا الوضع الذي كانوا يعيشون فيه جعلهم يتمرسون بطرق الاجتهاد بالرأي وبقواعد استنباط الأحكام من مصادرها: فقد لا يكون فيها نصوصاً هناك شيئاً اسمه (الاستحسان وسد الذرائع والاستصلاح) وهذه كلها كمصادر للتشريع دلّ عليها بشكل إجمالي كتاب الله تعالى.

الجامع المشترك بين المدرستين – مدرسة الرأي والحديث –:

أما ما يلتقيان عليه: إتباع النص في حالة وجوده إذا استوفى شروطه: وهي ثبوته ثبوت يقيني قطعي، ودلالة واضحة أكيدة وقوة السند في الحديث الشريف، ثم يفترقان بناءً على طبيعة بيئة كل منهما فبيئة الحجاز تختلف عن بيئة العراق.

وإلا فهم يضطرون للتفكير واعتماد القياس وذلك في أضيق الحالات وأحوجها.

من بعض علماء أهل الحديث:

- عطاء بن أبي رباح في مكة، وفي العصر الأموي كان الخلفاء ينادون ألّا يفتينّ الناس إلا عطاء بن أبي رباح في موسم الحج ويُلزمونهم بالأخذ منهم فقط.
- سعيد بن المسيِّب في المدينة المنورة وكان من أجل علماء المدينة وأكثرهم ورعاً ومن المكثرين للرواية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

بعض علماء أهل الرأي:

- إبراهيم بن زيد النَّخعي.
- الحسن البصري وهو من علماء البصرة وكان مرجعاً كبيراً في العقيدة والفقه وفي الرواية عن رسول الله عليه السلام وكان ورعاً وكان من نبلاء الفقهاء والعلماء.

- مكحول الشامي والإمام الأوزاعي في الشام.

الخاصة الخامسة: تدوين الحديث:

- من الأمور التي تحلّت في أواخر الدور الثالث تدوين الحديث وحمايته ألم نقل إن الكذب انتشر على رسول الله في تلك الفترة فماذا صنع علماء الحديث لحمايته من ذلك ..؟

بني العباس اشتهروا بخدمة الدين وبحماية الحديث وقاموا بثورة علمية لا شك فيها. من الأعمال الجليلة والتي ساهمت في سد الفجوة هي: تدوين الحديث في مصنفات ولم تكن تسمى صحاح أو مسانيد.

وكان أول من قام بذلك الإمام أبو بكر ابن حزم أحرج أول مدونة في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام بالرواية والإسناد وكانت مدوّنته هذه موثوقة وكانت عبارة عن سحل يحوي لأول مرة شيئاً مكتوباً يثق النّاس به وأن ما فيها هي الأحاديث الصّحيحة التي رويت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ويعرف ذلك بالرواة المذكورين المعروفين ولم يكن الفاصل بين رسول الله عليه السلام بفاصل زمني طويل.

والمدونة الأحرى التي ظهرت في أواحر الدور الثالث مدونة (الموطأ) للإمام مالك فقد طلب منه أبو جعفر المنصور أن يدون كل ما يعرفه مِن حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال له: وطئه توطيئاً .. والفرق بين هذه المدونات والمدونات التي جاءت من بعد والتي سنتحدث عنها في الدور الرابع أن هذه المدونات التي ظهرت في الدور الثالث: امتزج فيها الأحاديث في الأحكام الفقهية فأنت إذا قرأت مثلاً الموطأ رأيت الإمام مالك يروي حديثاً إثر حديث إثر حديث ثم يذكر لك أحكاماً من أحكام الشريعة الإسلامية.

فهذه المدونات إن مدونة الإمام مالك أو مدونة الإمام ابن حزم جمعوا فيها بين الحديث رواية وبين الأحكام الفقهية فتوى.

ومن هذه المدونات أيضاً المدونة التي قام بها سفيان بن عيينة أخرج ما سماه (الجامع في السنن والآداب).

كذلك المدونة الرابعة في هذا العصر التي قام بما سفيان الثوري أخرج ما يسمى (الجامع الكبير في الفقه والحديث).

هذه المدونات التي ظهرت في أواخر الدور الثالث من أدوار التشريع كانت مقدمة الإحاطة بأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام واستخلاصها من أيدي المارقين والمتربصين بكلامه واستخلاصها في الدور الرابع سنجد أبرز مظاهر هذا الدور أن علماء الشريعة الإسلامية بالتعاون مع علماء الحديث وبالتعاون مع خلفاء بني العباس قاموا بنخل هذه الأحاديث وإبعاد المنكر والموضوع وتصفيتها من كل ذلك، ثم ظهر مزيد من الوسائل ومن الأسباب التي جعلت حديث المصطفى عليه السلام يتسامى فوق كيد الكائدين.

لكن في تلك الفترة أيضاً وجد من أخذ ينشر وينشر معتقداً خلاصته أن الشريعة الإسلامية تؤخذ من القرآن فقط والسنة ليست من الشريعة الإسلامية: لكن سرعان ما قضي على هذا، وكان الذي قضى على ذلك الإمام الشافعي عندما أخرج كتابه (الرسالة) جعل الله سبحانه وتعالى من هذا الإمام وما كتب وقاية لهذا الدين العظيم.

الدرس الحادي عشر:

أهم ما يتميز به الدور الربع: اتحاد مدرستا الرأي والحديث - اتساع العلوم الإسلامية - ظهور الأئمة

الدور الرابع من أدوار التشريع الإسلامي: وهو (العصر الذهبي) لاتساع العلوم الإسلامية والبشرية فيه، وتقارب مدرستي أهل الحديث وأهل الرأي، حتى اتحدتا، بنُضْج منهج أهل السنة والجاعة وظهور مجتهدي: المذاهب الفقهية الأربعة

مدته الزمنية:

وهذا يعتبر أنضج الأدوار في طريق التشريع، ويبدأ زمنياً من أول القرن الثاني حوالي سنة ١٠٠ هـ، أي لمدة قرنين و ٥٠ عام.

من أهم ميزات هذا الدور:

أولاً: اتساع العلوم الإسلامية وتحول العلوم من روايات تعتمد على اللسان إلى مدونات.

ثانياً: رأب الصدع والتقارب بين المدرستين إلى أن اتحدتا في مدرسة واحدة متناسقة.

ثالثاً: ظهور الأئمة الأربعة.

شرح أولاً: النشاط العلمي واتساعه في الدور الرابع:

ظروف الدور الرابع يسرت للعلماء التوسع في مجال المعارف والعلوم المختلفة لا سيما القرآن والسنة فأقبلوا إلى تدوين هذه العلوم والمعارف في سائر العلوم بالإضافة إلى علوم الشريعة كعلم النحو والعروض والأدب والبلاغة والتاريخ وغيرها ، بدأت هذه العلوم تظهر وتترعرع في ظل هذا الدور.

فاتجه العلماء إلى ترجمة طائفة من العلوم من لغات أخرى إلى اللغة العربية كالفلسفة والمنطق والرياضيات، بل هناك علوم ابتكرها العلماء المسلمون في هذا الدور كعلم الفلك والهندسة والطب، كل ذلك نما وترعرع في هذا الدور الرابع.

من أبرز علماء هذا الدور:

سفيان بن عيينة، سفيان الثوري، مالك بن أنس إمام علماء المدينة، الحسن البصري، الإمام أبي حنيفة، الإمام الأوزاعي الذي أقام في بلاد الشام ثم رحل إلى بيروت وتوفي هناك، الإمام الشافعي، الليث بن سعد الإمام أحمد وداوود الظاهري صاحب المذهب الظاهري ..

عوامل النشاط العلمي الذي تجلُّى في هذا العصر..؟

- 1. عناية الخلفاء بالعلم والعلماء ولا سيما الخلفاء العباسيين: فقد كان اهتمامهم بالعلم لاسيما العلم الشرعي أكثر من خلفاء بني أمية باستثناء سيدنا عمر بن عبد العزيز، أبو جعفر المنصور كانت له اليد القوية في حماية السّنة وقد بذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً وجعل من نفسه خادماً للعلماء في هذا الصدد. الإمام المهدي من بعده سجل له التاريخ ملاحقته للزنادقة وإنزال أشد العقوبات بهم. هارون الرشيد الذي أوجد منصب قاضي القضاة ليحفظ للقضاء هيبته وسلطته. المأمون من الذين شجعوا العلوم الإسلامية، وشجع حرية البحث والحوار.
- ٢. حرية البحث والحوار بدلاً: من أن تتخاصم المذاهب المتناقضة كان يسود بينها الحوار الهادئ النقاش العلمي وبإشراف خليفة المسلمين، وكثيراً ما يتحول هذا الحوار إلى مدونات علمية مثل < كتاب الحيدة >، وفقاقيع الفرق التي ظهرت في هذا الدور كالمعتزلة والجهمية وغيرها الذي جعلها تبيد بعد أن سادت هو الحوار المستمر والمناقشة الدائمة وقد كانت محالس الحوار هذه مجالس معلنة.
- ٣. كثرة الوقائع في هذا الدور: فقد تألقت فيه الحضارة الإسلامية وانتشرت فيه الفتوحات ولذلك يسمون هذا الدور بالعصر الذهبي للإسلام فمبادئ الإسلام تتسع لتغطية كل ما يجد من العادات والرؤى الفكرية إما الإباحة أو الوجوب أو الحرمة أو الكراهية.

خ. تدوين العلوم: اتسع التدوين بل أصبح الأساس فيما يتعلق بنشر العلوم والمعارف في الدولة الإسلامية مترامية الأطراف وكانت الخلافة هي التي ترعاه وتشجعه أيما تشجيع، وهو الذي يسهل مراجعة البحوث العلمية دون أن يرحل الباحث فيه من بلد لآخر، وفي ظل هذا النشاط العلمي تطورت علوم الإسلام (التفسير والحديث ووسائل توزيع علوم العقائد وطريقة إلى الأذهان وكذلك الفقه).

أولاً: التفسير:

كان التفسير في عصر النبي والمنطقة مسموعاً ولم يكن مقروءاً، لكن في هذا الدور دوّنت التفاسير وأبرزها: تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير محمد بن إسحاق، تفسير السدّي، كذلك تفسير سفيان بن عيينة، لكن الأهم من تعدادها أن نعلن أن التفاسير تنقسم إلى نوعين:

- ا. تفاسير مرتبطة بالمأثور عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أو عن الصحابة والتابعين: ثم لا يزيد المفسر عن ما هو مأثور قط وهذا المنهج يسمونه تفسير بالمأثور، ومن أبرز كتب التفسير في هذا النهج: تفسير الطبري فعندما يفسر الآية تجده يبدأ برواية الحديث إثر الحديث عن رسول الله عليه السلام في تفسيرها ثم يذكر ما عثر عليه في الروايات الصحيحة سبب نزول هذه الآية ثم إن لم يجد في تفسيرها مِن كلام المصطفى والمينية بحث عما قاله أصحابه رضي الله عنهم ثم لا يخرج عن نطاق هذا المروي أبداً ولذلك سمي التفسير بالمأثور ... وعمن سار أيضاً على هذا المنوال ابن كثير في تفسيره.
- 7. التفسير بالرأي: أي أن هؤلاء الذين فسروا سلكوا ما سلكه الطريق الأول لكنهم زادوا عليه ما دلته عليه عقولهم وأفكارهم من معان استنبطوها من كلام الله تعالى بمقتضى قانون الدلالات: فهؤلاء أولاً ما تحللوا من المأثور لكنهم زادوا عليه ومن أبرزها: تفسير معالم الغيب للإمام فخر الدين الرازي.

ولن تجد في هذا العصر من فسر القرآن على رأيه دون التزام بقواعد التفسير أو دون التزام بما صح عن رسول الله والله والميالية أو بما صح عن أصحابه رضي الله عنهم، الذي يفسر برأيه غير متقيد بما صح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أو على أصحابه مفتئت على كتاب الله وهو يعلم ذلك.

الدرس الثاني عشر:

اتساع العلوم الإسلامية: الحديث والفقه – أئمة المذاهب: أبو حنيفة

ثانياً: الحديث:

في أواخر القرن الثاني ظهر من يهتم بتدوين الحديث الشريف وفي هذا الدور الرابع كذلك لكن بطريقة أخرى مطوّرة، فالطريقة الأولى كانت عبارة عن مدونات للأحاديث الصحيحة طبق أبواب الفقه الإسلامي — العبادات المعاملات وغيرها – وكانت أول مدونة للإمام أبي بكر بن حزم وقد ذكرنا ذلك.

ثم تطورت طريقة تدوين السنة النبوية وأصبح هنالك مسانيد، أبرزها: - مسند الإمام أحمد، ومسند الإمام أبي يعلى، ومسند الإمام الطبراني -

وطريقة تدوين الأحاديث في المسانيد: لم تكن تدون حسب الأبواب الفقهية وإنما يرجع فيها إلى كل صحابي من الصحابة وعدد الأحاديث التي رواها فتذكر مرويات أبي هريرة سواء كانت في باب الوضوء أو الصلاة أو الحج أو غيرها ثم تذكر مرويات عبد الله بن عمر مثلا ثم زيد بن ثابت ...

ثم ظهرت جماعة منهم دونوا حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ولكن بطريقة التبويب حسب أبواب الفقه بدءاً من العقائد ثم العبادات ثم المعاملات وهكذا.

ظهر في هذا المنهج ما يسمى بالكتب الستة: أولها: (صحيح البخاري لمحمد بن اسماعيل البخاري) و(صحيح مسلم لمسلم بن حجاج) و(سنن أبي داوود سليمان بن الأشعث) و(سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي) و(سنن بن ماجه لمحمد بن يزيد القزويني) و(سنن النَّسائي أبو عبد الرحمن بن أحمد النسائي) .. هذه الكتب هي قمّة العمل الذي ضبط فيه الحديث ضبطاً متطوراً لكن طبعاً كان الإمام البخاري في شروط الصحة عنده أشد من مسلم، فالبخاري يشترط المقاء والصحبة بين الراوي والمروي له والإمام مسلم يشترط المعاصرة مع إمكانية اللقاء وهكذا.

في أواخر القرن الثالث ظهر علم جديد يسمى (علم الجرح والتعديل): وأبطال هذا العلم: يحيى بن سعيد القطان: من أعظم علماء الحديث وقد شهد له الإمام الشافعي فقال: لم أرى في الدنيا

مثله، عبد الرحمن بن مهدي، يحيى بن مَعين، علي بن المديني شيخ الإمام البخاري، أحمد بن حنبل رضى الله عنهم.

أما مهمة هؤلاء هي: تتمثل في جمع أسماء الرجال الذين يهتمون برواية الحديث عن رسول الله والمنظمة ممهمة هؤلاء هي: تتمثل في جمع أسماء الدكر فيها رجال الصحيح فكل منهم يوصف بأنه حُجّة وهي أعلى درجة الثقة، وفئة أخرى درجة أدنى يوصف الواحد منهم بأنه ثِقَة، فئة ثالثة يوصف الواحد منهم بلا بأس به، ثم تنزل الدرجة عن القبول، فهي عبارة عن قواميس لا ترصد الكلمات وإنما ترصد الرجال، والغرض من ذلك قطع الطرق عن الزنادقة أن يدخلوا فيمارس أحدهم ما كان يمارسه بالأمس، فبهذا عرفت قائمة الرواة الثقة من غيرهم. ومما يَستر ذلك قرب العهد بينهم وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ثالثاً: الفقه: ..

والحديث عن الفقه الإسلامي يستلزم الحديث عن أبرز ما ظهر وهي المذاهب الأربعة، حسب الترتيب التاريخي:

الإمام أبي حنيفة النعمان:

ولد في عام ٨٠ هـ وتوفي عام ١٥٠ أي العام الذي ولد فيه الإمام الشافعي، المعه: [النعمان بن ثابت] وأصله فارسي. وأثبت له العلماء رؤية الكثير من الصحابة، فهو على ذلك تابعي فقد عاصر أربعة من الصحابة لكنه لم يرهم على الصحيح وهم: أنس بن مالك، وسهل بن سعد الساعدي، وبن أبي أوفى، وعامر بن واثلة، لكن في العلماء من رجح أنه رأى أنس بن مالك وروى عنه الحديث الذي يرويه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام (طلّبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)، وإذا ثبت هذا فيكون إذاً أبو حنيفة من التابعين رضى الله تعالى عنه.

شيوخ الإمام أبو حنيفة:

- أساتذته: عطاء بن أبي رباح مفتي مكة، نافع مولى عبد الله بن عمر، حَمادة بن أبي سليمان درس عليه ١٨ عاماً، ابراهيم النخعي.

ا رواه ابن ماجه في سننه.

كان خرّازاً في الكوفة، كريماً جواداً سمحاً .. لقد اجتمعت الأمة على أن الإمام أبو حنيفة من أعلم علماء عصره وعلى قوة حجته، وعلى أنه كان يمتاز بقوة علمية فريدة هي قدرته على الاستنباط واستخراج المسائل من أعماق النصوص ودلالاتما، وإليك من أقوال علماء عصره:

قال الإمام الشافعي: الناس عالة في الفقه على أبي حنيفة، يعني الفضل له فيما يتعلق بالفقه. بالإضافة إلى ذلك كان معروفاً بالورع، بالإضافة إلى قوة حجته وقدرته الفقهية، وشدة ذكائه وسرعة بديهته.

الدرس الثالث عشر:

الإمام أبو حنيفة ... منهجه وتلامذته

مازلنا في الدور الرابع الذي وحدت فيه المذاهب الأربعة ونحن الآن نتكلم عن الإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه.

الإمام أبو حنيفة: لم يترك مِن ورائه مؤلفات كما فعل الإمام الشافعي من بعد وغيره، لكن أصحابه نقلوا عنه آراءه الاجتهادية ودوّنوا آراءه الفقهية المختلفة وذكروا منهجه في الاجتهاد.

يقول الإمام أبي حنيفة عن نفسه: إنني آخذ بكتاب الله، فما لم أجده فيه أخذته بسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فإذا لم أجد فيهما أخذت بأقوال الصحابة آخذ بقول من شئت وأدع قول من شئت — عند اختلافهم في المسائل — ثم لا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى ابراهيم النخعي والشعبي والحسن البصري وابن سيرين فلي أن أجتهد كما اجتهدوا هذا هو منهجه رحمه الله تعالى في الاجتهاد.

هنالك من يتهم أبو حنيفة بقلة الحفظ والرواية ولم تكن له بضاعة في الحديث؟! وهذا كذب، فقد صح أنه رحمه الله تفرد برواية مئتين مِن الأحاديث فضلاً عن الأحاديث التي اجتمع مع المحدثين الآخرين في روايتها.

الاجتهادات التي تميز بها أبو حنيفة عن اجتهادات الأئمة الشافعي ومالك وأحمد:

تميز الإمام أبي حنيفة بالاستحسان وقد اتبعه في ذلك أصحابه. لكن ماذا تعني كلمة الاستحسان؟ مضمونها هو ذاته الذي ينادي به الأئمة الثلاثة الآخرون، لكن الإمام أبي حنيفة طاب له استعمال هذا المصطلح.

نذكر بعض الأمثلة التي اعتمد عليها على ما يسميه الاستحسان:

يقول في باب الحدود: إذا شهد أربعة أشهاد على شخص بارتكاب الفاحشة، فاختلفت أقوالهم في وصف الفاحشة، واتفقوا على ارتكاب الفاحشة، مالحكم؟: قوله عليه السلام: (ادْرَءُوا الحُّدُودَ بِالشُّبُهَاتِ مَا اسْتَطَعْتُمْ)، قال الإمام أبي حنيفة بعدم قبول شهادة الأشهاد لاختلافهم، إذاً تعرضوا للحد ثمانين جلدة، فنتيجة هذا استصدم الحكم بحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام: (ادْرَءُوا الحُّدُودَ بِالشُّبُهَاتِ مَا اسْتَطَعْتُمْ).

السبب في انتشار مذهب أبي حنيفة:

على حساب معاصريه على الرغم من أنهم لا يقلون عنه علماً وفقهاً من أمثال النخعي وعلقمة بن قيس والأوزاعي وحماد شيخ الإمام وعطاء بن رباح:

أولاً: الإمام أبو حنيفة أول من اشتغل بالفقه الفرضي (الأرئيتيين) فقد كان يفرض الوقائع وإن لم تقع، يتأمل فيها ويعطي كل منها حكم وإن لم تقع، وهذا طبعاً يعطي فقهه غزارة وسعة لاسيما عندما يكون هذا الإمام خبير بعلم الاجتماع والمشكلات التي ينتج بعضها من بعض، فهو لا يفرض المستحيل بل المتوقع حدوثها.

الشيء الثاني: شاء الله أن يكون الإمام أبي يوسف قاضياً لثلاثة خلفاء المهدي، الهادي ثم هارون الرشيد، وسمي قاضي القضاة، والإمام أبو يوسف هو تلميذ الإمام أبو حنيفة فيقضى على مذهبه والمدونات التي دونت على مذهبه. وكان فقه الإمام أبو حنيفة أول فقه مذهبي.

٣٦

^{&#}x27; الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي المعافى بن زكريا، وقد خرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم بلفظ آخر.

السبب الثالث: تدوين تلامذته لاجتهاداته كالإمام محمد فقد دوّن ما سمي بظاهر الرواية فلقد كان للإمام تلاميذ هم أئمة أفذاذ قيدهم الله له، فكانوا يكتبون ويدونون فتاويه واجتهاداته ولم يهيئ ذلك للأئمة الآخرون.

أبرز تلامذته:

أولهم أبو يوسف واسمه يعقوب بن إبراهيم ولد عام ١١٢ هجري، اشتغل أولاً بالحديث وذهب إلى الحجاز فتلقى الحديث هناك عن علمائه حتى إن منهم مَن نعته بالمحدّث ثم تحول مِن أخذ الحديث إلى الفقه فكان أستاذه الأول عبد الرحمن بن أبي ليلى وكان واحداً من فقهاء الرأي، ثم اتجه إلى الإمام أبي حنيفة وأخذ منه ١٨ عاماً، كان الإمام أبي يوسف فقيراً مقلاً لمّا تتلمذ على يد أبي حنيفة رضي الله عنه واساه وأعانه بالمال على أن يستمر في طلبه للعلم حتى تخرّج عالماً من أجل علماء هذا العصر جامعاً بين الحديث والفقه، وهو أول مَن دوّن مذهب الإمام أبي حنيفة ونشر علومه المختلفة.

اجتهادات الإمام أبي يوسف: هنالك من كان يقول عنه: أنه كان معروفاً بالحيل الشرعية فقد كان يؤمن بالحيل الشرعية وهذا سبب إطالة ألسنة بعضهم في الحديث عنه، حين نعود إلى أيامه لا نجد من انتقده على خلاف هذا العصر فما أكثر من ينتقدونه، هل كان هؤلاء الأساطير من العلماء لا يتمتعون بالغيرة على الشريعة الإسلامية؟ الواقع أنهم أكثر منا غيرة وتمسكاً بالشريعة الإسلامية .. هل كل ما يسمى بالحيل الشرعية مرفوضة؟ لا .. قد يكون الشارع هو الذي بصرنا بالطريق إليها فنحن نسلك فيها ما دلّنا عليه الشارع حل جلاله، أما الحيل التي تتلاعب فيها بالشرع تفتئت بها

الدرس الرابع عشر:

الإمام أبو حنيفة ... منهجه وتلامذته، الإمام مالك ومنهجه

لا زلنا نتحدث عن الإمام أبي حنيفة ..

عليه فهذه هي الحيل الباطلة التي لا يجوز أن نجنح إليها.

كان الإمام أبي حنيفة يتردد بكثرة إلى مكة والمدينة، يبتغي بذلك الاجتماع مع علماء الحجاز والجلوس إليهم والاستفادة منهم فجلس إلى عطاء بن أبي رباح مفتي مكة والمدينة وأخذ أيضاً عن

نافع مولى عبد الله بن عمر وغيرهم من علماء أهل البيت منهم: زين العابدين بن علي ومحمد الباقر وابنه جعفر الصادق.

موقف علماء آل البيت الذين لا يأخذ الشيعة إلا منهم من الخلفاء الراشدين:

نقول بهذه المناسبة: أن محمد الباقر، وزيد بن علي، وجعفر الصادق، هؤلاء هم الأئمة الذين لا يأخذ الشيعة إلا منهم وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن علماء أهل البيت وفي مقدمتهم هؤلاء كانوا يثنون على الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وكانوا يُسكتون كل من يريد أن يطيل لسانه بأي إساءة في حقهم ... ونحن إذا أردنا أن نقتدي بآل البيت فبهؤلاء نقتدي، ونحن في مقدمة من يجعلوا قلوبمم أوعية لمحبة آل البيت ومحبتهم تستازم اتباعهم.

ولم يكن في ذلك العصر أي شيء يبرز أن هنالك فئة تسمى الشيعة وتتخذ من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام موقف العداء، نتجت ظاهرة الحقد على الخلفاء الثلاثة هو عبد الله بن سبأ الذي يُدعى بابن السوداء اليهودي المقنع بالإسلام الذي جاء من اليمن ..

الإمام الثاني صاحب أبي حنيفة هو: (محمد بن حسن الشيباني):

ولد في الكوفة وطلب الحديث فيها والفقه وعلم الكلام مِن الإمام مالك وكان مِن مشايخه أيضاً الإمام الأوزاعي وسفيان الثوري وآخرين ثم تعرف على أبي حنيفة وصحبه، وأخذ الفقه عنه لكن لم يتح له أن يجالس الإمام أبي حنيفة فترة طويلة، وأخذ أيضاً عن أبي يوسف، أصبح الإمام محمد مرجعاً في الفقه الحنفي حتى أنه تألق نجمه أكثر من أبي يوسف بسبب اشتغال أبي يوسف بالقضاء فمنعه من مواصلة المعرفة والعلم فتفوق عليه محمد الشيباني في الفقه وأصبح مرجعاً في الفقه في حياة أبي يوسف.

الإمام الشافعي زار بغداد وزار قبر الإمام أبي حنيفة وكان يبحّله تبحيلاً كبيراً وتعرف على محمد بن حسن الشيباني وقال:

لقد أخذت من محمد بن حسن الشيباني وقر بعير من العلم – أي حِمل الكتب التي قرأها عليه – وقد قامت مناظرات طريفة وجميلة بينهما، بعض هذه الأمور التي تمت المناظرة بينهما فيها بعضها تابع الإمام الشافعي الشيباني فيها وبعضها تابع الشيباني محمد الشافعي فيها، فلم تكن المناظرة

لتفوّق أحدهما على صاحبه وإنما بحثاً عن الحق وهذه المناظرات موجودة في كتاب الإمام الشافعي (الأم) ..

الإمام مالك:

واسمه: مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي " وأبي عامر من كبار أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام. ولد على أصح الأقوال سنة ٩٣ هجرية وتوفي ١٧٩ هجرية وبهذا نجد انه قد عاصر الخلافة الأموية والعباسية.

ولد في المدينة المنورة من أسرة أصلها يمني من قبيلة اسمها (أصبح) وأسرته أسرة علم والده أنس كان عالماً وجده مالك بن عمر الأصبحي كان محدثاً سمع الحديث من أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير والكثير من الصحابة.

والإمام مالك بعكس الأئمة فقد استقى من المدينة المنورة بعكس غيره من العلماء الذين ارتحلوا في طلب العلم والسبب أن العلماء من جميع أصقاع العالم الإسلامي كانوا يرتحلون إلى المدينة المنورة فكان في المدينة يرى الجميع وخصوصاً في موسم الحج.

وبهذا اطلع الإمام مالك على عادات الناس والظروف والأماكن المختلفة وبالتالي اتسعت آفاقه الفقهية واتسعت مداركه الاجتهادية، وأقام "للمصلحة" التي هي أساس الشريعة الإسلامية ميزان دقيق.

حفظ الإمام مالك القرآن وهو طفل شأنه شأن كل الأطفال الذين سلكوا هذا المسلك.

شيوخ الإمام مالك:

شيوخه: وبعد سبع سنوات بدأ يأخذ عن نافع (مولى عبد الله بن عمر) وهو من أحفظ علماء الحديث وهو راوي ومحدث وفقيه ويقول الإمام مالك عن نفسه: (كنت أحرج وقت الظهيرة وليس للأشياء ظل أتتبع درس ابن أبي شهاب الزهري).

ومن أساتذته ربيعة بن عبد الرحمن وهو من أئمة الفقه ولقب ربيعة الرأي معروف أنه كان من مدرسة الرأي لأنه كان يتجاوز دائرة النصوص إذا كثرت المسائل.

جلس الإمام مالك يروي الحديث ويفتي كما قيل في بعض الروايات وعمره لا يتجاوز سبعة عشرة سنة. كان الناس يزد حمون على مجلسه تباعاً .. أفتى الناس في المدينة ٧٠ عاما ويلقب بإمام دار الهجرة.

الإمام الشافعي شهد له بقوله: مالك حجّة الله على خلقه. وقال حمّاد بن سلمة شيخ الإمام أبي حنيفة: لو قيل لي اختر لأمة محمد والله الماماً يأخذون عنه العلم لرأيت مالكاً هو الأهل لذلك. كان بالإضافة إلى اتساعه في علوم الفقه كان محدّثاً وشهد له بذلك الإمام البخاري رحمه الله تعالى قال الإمام البخاري: أن أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

ومن أصح الأسانيد: مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه، وهو الذي وضع كتاب الموطأ من أوائل ما دوّن في الحديث وكان مَن كلّفه بذلك أبو جعفر المنصور، وقال له: أخرج مدونة في حديث رسول الله والمنطقة ووطئه توطيعاً.

بقي الإمام مالك يشتغل بالموطأ ٤٠ عاماً وضم فيها (بضعة وخمسمئة) حديثاً، وهي أصح ما اعتمد عليه الإمام مالك رضى الله تعالى عنه.

الدرس الخامس عشر:

الإمام مالك ... منهجه والمحنة التي مر بها

كان الإمام مالك إلى جانب تألقه وإمامته في الفقه وأصوله محدثاً أيضاً ولقد شهد له علماء الحديث ورواته، وكان كثير التوقير لحديث النبي عليه الصلاة والسلام.

- استغرق في تأليفه لكتاب الموطأ ٤٠ عاماً ثم نخله واختصره لماذا..؟ لأنه يجد أنه قد حُمّل أمراً شديداً ومهماً جداً فينبغي أن يكون عمله أهلاً لمكانة رسول الله ولحديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ...
- الإمام البخاري كان يروي عنه وكان يقول: أن أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر. وممن روى عنه الحديث أساتذته كالزهري وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وهذا دليل على أنه ذا مكانة في حديث النبي المرابقة والرواية عنه.

- إلى جانب ذلك أنه كان كثير الوجل والخوف، كان الإمام مالك إذا سأل عن أمر ما يقول: انتظر لغد أو لبعد غد ثم يجيبه أو يقول له: لا أعلم، وقال: (ليتصور أحدكم الجنة والنار وموقفه من الله عز وجل غداً ومصيره يوم القيامة، ثم لينظر أيسرع بالإجابة عندما يفتي)، جاءه رجل من المغرب بمسيرة ٦ أشهر، فقال له: لا أدري.

الابتلاء الذي وقع للإمام مالك:

الإمام مالك قد وقع في محنة شبيهة بالتي وقع فيها الإمام أحمد، اختلف المؤرخون في سببها .. أُخذ وعُذب ضُرب بسياط كثيرة وفكت ذراعه ثم مرض وتوفي بمرضه ذاك عام ١٥٧ ..

منهج الإمام مالك في الاجتهاد:

كان أول دليل يعتمد عليه: النص الذي يقرأه في كتاب الله سبحانه، وأقصد بالنص: أي العبارة القاطعة في دلالتها على المعنى.

في الدرجة الثانية: الظاهر الذي نقرأه في كتاب الله عزو حل وبنفس المستوى ما يسمى بمفهوم الموافقة وما يسمى بمفهوم المخالفة. مثلاً قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفِّي ﴾ الإسراء: ٣٠ يقول أحدهم: أنا لا أقول أف لهما لكن أضربهم .. نقول هذا الكلام القرآني يدل على ما يشبه التأفف ويسمى مفهوم - موافقة - فكلمة أفّ كناية عن الأذى.

مثال المخالفة: إذا بلغ الطفل سن الرشد خوطب بأداء الواجبات مثل الصلاة فمفهوم- المخالفة - في هذا أن الطفل إذا لم يبلغ سن الرشد لا يخاطب بأداء الواجبات ..

ثم في الدرجة الثالثة: الإجماع ولكنه يرى أن عمل أهل المدينة يساوي الإجماع فإن خالف عملهم نصَّ حديث روي عن رسول الله آحاداً فيرى أن عمل أهل المدينة أقوى، وهنا كان الخلاف بينه وبين البقية.

وكان يرى، أن قول الصحابي بفتوى وكان بسند صحيح: يجب العمل بقوله، وخالفه الإمام الشافعي وأحمد بذلك.

وكان الإمام مالك يأخذ بالمصالح المُرسَلة:

وهي مسألة لم يَرِد على حكمها لا في القرآن ولا السنة ولا في القياس على نظائر لها في القرآن أو في السنة، ولكنها تدخل في مقاصد الشارع ومقاصد الدين ومقاصد الحياة وفي مقصد حفظ العقل والنسل والمال لكن لا دليل لها لا سلباً ولا إيجاباً.

مثلاً: غياب رجل عن زوجته مدة طويلة ولا يُعلم مكانه فزوجته وقعت في الحرج وهي بحاجة لزواج ففي هذه الحالة التي لا يوجد لها نظير ولا نص في القرآن والسنة، وإن تركت بهذا الحال ربما تنحرف وتشرد عن الانضباط بأوامر الله والأخلاق الإسلامية إذاً هنالك مصلحة تدخل في مقصد حفظ الدين وهي تتمثل في أن يفتى لهذه المرأة بعد اليأس من مجيء الزوج وبعد غياب لا يقل عن أربع سنوات فيجوز في هذه الحالة أن تعتد وأن تتزوج ...

ويقول الإمام مالك: أنه إذا كانت هناك قاعدة فقهية تستند إلى نص من القرآن أو السنة آخذ بهذه القاعدة وإذا وجدت حديثاً ليس متواتراً وإنما أحادياً يتعارض مع هذه القاعدة فأنا أترك الحديث وآخذ القاعدة .. وهذه أيضاً نقطة خلاف بينه وبين الفقهاء.

مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزَرَأُخُرَيُ ﴾ الإسراء: ١٥ هذا نص استنبط منه العلماء قاعدة وهي: أن الإنسان لا يعاقب على جريمة غيره وإنما يتحمل مسؤولية أعماله .. ثم وجدنا تعارضاً بين هذه الآية الكريمة وقوله عليه السلام: (إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءٍ أَهْلِهِ عَلَيْهِ) .. فيقول الإمام مالك: بأن هناك تعارض بين الدليلين، فيترك الحديث الآحاد ويأخذ بالنص.

إن وجد الإمام مالك عمل أهل المدينة يخالف حديثاً آحادياً، فيأخذ بعملهم ويترك الحديث لأن عمل أهل المدينة بعصر الصحابة والتابعين لأنهم لم يأخذوا بهذه الأعمال إلا من رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو بمثابة إجماع خاص منهم على ما كان يفعله رسول الله وهو بنظره أقوى من حديث الآحاد.

حديث عن رسول الله عليه السلام يقول: (الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ \). الإمام مالك قال بأن هذا الحديث مخصص بما دلّ عليه عمل أهل المدينة أي أن كلامه عليه السلام هذا

معجم ابن المقرئ، وقد رواه الترمذي والدار قطني بألفاظ قريبة.

رواه البخاري.

يشترط فيه أن يكون هناك علاقة ما بين المدعي والمدعى عليه، هذا الرأي عند الإمام مالك نتيجة لما ذهب إليه من أنه يعتبر عمل أهل المدينة أقوى من حديث الآحاد.

يقول أيضاً الإمام مالك: بالاستحسان وبسد الذرائع ويقول أيضاً في: أن (شرع من قبلنا شرع لنا) إلا إذا جاء نص ينسخها.

وسد الذرائع كما علمنا أنه إن أيقنا أن المباح يجر إلى معصية يصبح المباح حراماً. رجل سفيه فاجر علمت يقيناً أنك لو سببته لانتقم منك بسبّه لرسول الله عليه الصلاة والسلام أجمع العلماء بحرمة شتمه ولو كان أهلاً لذلك.

أسباب الخلاف بين الإمام مالك وغيره من الفقهاء هي:

عمل أهل المدينة، وقوله بالمصالح المرسلة مع العلم أن بقية الأئمة يقولون بالمصالح المرسلة لكن لا يطلقون عليها هذا المصطلح، وما يتعلق بالاستحسان، وسد الذرائع.

الدرس السادس عشر:

منهج الإمام مالك في الاجتهاد (متابعة): مبدأ سد الذرائع، الأخذ بالعرف، الكتب التي دونها الإمام مالك: الموطأ، المدونة في فقه الإمام مالك، سبب انتشار مذهب الإمام مالك في شمال إفريقيا

من أصول الإمام مالك سد الذرائع:

الإمام مالك يقول: أن أحكام الشريعة الإسلامية قسمان: قسم منها مقاصد: كالعدل والعبادات والمحرمات والفواحش فهذه تدعى مقاصد أي غايات. والقسم الآخر هو وسائل لهذه المقاصد. والوسيلة التي توصلنا إلى غاية مشروعة في بعض الأحيان توصلنا لغاية غير مشروعة وحين كانت توصلنا لغاية مشروعة كان حكمها الوجوب أو السنية، لكن لأسباب نظرنا فوجدنا هذا السلوك بدل من أن يكون وسيلة لأمر مشروع أصبح وسيلة لأمر محرم فسمي بسد الذرائع لأنه سد الوسيلة إلى محرم.

مثلاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أمر مشروع لكنه من أحكام الوسائل، فإن أوصلنا الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر لذريعة لا ترضي الله، في هذه الحالة يصبح المندوب محرم وذلك سداً للذريعة.

وهذا المبدأ ليس خاص بالإمام مالك وإنماكل علماء الشريعة الإسلامية وفقهائها يقولون به.

آخر أصول الإمام مالك في اجتهاده هو العُرف: وهو فرع عن المصلحة، فإذا عرفنا معنى المصالح فإن كثيراً من الأعراف (أعراف الناس) تكون جزءاً من هذه المصالح، وإن خروج الناس عن الأعراف التي عرفوها وشربوها أمر شاق وعسير لذلك فالعرف يلعب دوراً كبيراً فيما يعلق بأحكام الشريعة الإسلامية.

وقد نظر الإمام مالك إلى العُرف نظرة عميقة واستخرج مِن نظرته قواعد أساسية لمعرفة متى يطبق العرف ومتى لا يطبق وطبعاً هذه الأصول كلها مطبقة عند الأئمة ولكن مع اختلاف الكمية المأخوذة.

إذاً العُرف: هو عادة انتشرت في مجتمع من المجتمعات وأطبقت هذه العادة على كل بيوتات المجتمع سواء أكان مصطلح كلامي أو عمل سلوكي.

والعرف عند الإمام مالك قسمين:

- فالأعراف عند الناس قولية أو عملية، القولية: مثلاً (اللحم) عند الكثير من الناس تطلق على الضأن.
- وهناك أعراف عملية فعلية: وهنالك أعراف لكل الأمم حسب أوضاعها وظروفها، مثاله: الرسول عليه الصلاة والسلام بين في حديثه أن زكاة الفطر هي صاع من غالب قوت البلد، والصاع مكيال معين في عصر سول الله عليه الصلاة والسلام كان له في ذلك العصر حجم وبعد معين ثم اختلف فيما بعد باختلاف البلدان. إذا نفسر كلمة صاع بالعرف الذي أطلق على هذه الكلمة أثناء حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام ومعرفة الحجم المكاني الذي أطلق عليه كلمة صاع.
- لو قال شخص في هذه البلدة والله لأتصدق بكل ما لدي من الدراهم، وكان لديه عملة البلد وعملات أخرى، فعليه أن يتصدق بعملة بلده فقط، وكذا لو قال أحد في الجزائر إلا أن يكون قصده أثناء نطقه للكلمة أن يتصدق بكل أنواع الدراهم فعندئذ قصده يغلب على دلالة العرف.

• موضوع الصور قال عليه الصلاة والسلام في تحريمها: (إِنَّ أَشَدَ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ) و(مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فَإِنَّ اللَّهُ مُعَنِّبُهُ حَتَّى يَنْفُحَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِحِ فِيهَا أَبَدًا) بعصرنا تفسر بالتصوير الفوتوغرافي، أما في عصر المصطفى عليه السلام لم يكن هذا المعنى موجود أصلا ففي عصر النبي عليه الصلاة والسلام كان المراد بالتصوير: العمل اليدوي الذي يقوم على المهارة الشخصية لإبراز الشيء الذي يصوره. ومن المعلوم أن النبي عليه السلام كان يقصد الشيء الحي، أي لم يقصد الجبال والطبيعة وغير ذلك وإنما قصد الذي لو كان حقيقة لعاش، هل يدخل التصوير الفوتوغرافي في حديث النبي عليه السلام ..؟ حسب قواعد الأصول عند الأئمة لا تدخل في التحريم، لأننا نفسر كلمة التصوير بالمعنى العرفي المتداول آنذاك ولا نجعل للعرف الدارج اليوم سلطاناً على الحكم.

وأبرز دليل على مشروعية الأخذ بالعرف: قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَـفُو َوَأَمُـرٌ بِٱلْعُـرَفِ وَأَعْرِضَ عَنِ ٱلْجَلِهِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٩ .

فالعُرف شريعة ثالثة عندما يسكت الشارع عن هذا الحكم ويحيله إلى العرف أي أن العرف القولي أو الفعلي إذا اصطدم مع نص في القرآن أو السنة لا يؤخذ به، لكن الإمام مالك قال: إذا كان هذا النص عاماً، وجاء عرف فعلي يخالفه، فالعرف يخصص النص العام كالحديث، ومن هنا يتوسع الإمام مالك فيما يتعلّق بالعرف، والعرف يعتبر حكماً في العصر الذي نريد أن نبني به الحكم ولا يتحكم في حكم سابق قبل مئة سنة مثلاً. هذه هي أصول الإمام مالك أُخذت مِن كتبه وما أوضحه تلاميذه.

لقد قيض الله له تلاميذ من مختلف الطبقات وشتى البقاع والأصقاع لينشروا علمه وفقهه بشكل أكيد، وإن ما يقرأ في الموطأ أو المدونة براوية سحنون نجزم بأن الإمام مالك قد قاله، والذي يتبعه يتبع إماماً راسخاً في العلم.

[·] كلا الحديثين رواهما البخاري.

أبرز الكتب التي دوّنها الإمام مالك:

(الموطأ) وهو عبارة عن حديث وفقه وقد أمضى في تأليفه أربعين عاماً، ثم أخذ ينخله وينقحه إلى أن أصبح على شكله المتداول اليوم. الكتاب الآخر: (المدونة) وهو أم الفقه عند الإمام مالك كيف جمعت المدونة ..؟

أحد تلاميذ الإمام مالك اسمه: سحنون أخذ ذلك من تلميذ آخر للإمام مالك اسمه: عبد الرحمن بن القاسم، ثم روى كل ما أفتى به الإمام مالك من أحكام، ثم دونها وصنفها وبوبما ثم طبع الكتاب فيما بعد وسمى المدونة.

والسؤال لماذا انتشر مذهب الإمام مالك في أماكن كثيرة خصوصا شمال أفريقيا؟:

وانتشر مذهب الإمام مالك في شمال أفريقيا ومعظم الناس هناك يسيرون على مذهبه. والسبب .. كان هناك رجل اسمه: أسد بن الفرات، هاجر من المغرب إلى المدينة المنورة وجلس إلى الإمام مالك وأمضى مدة طويلة هناك وقد أخذ فقه الإمام مالك ودوّنه وعاد به إلى المغرب وفي ذلك الوقت لم تكن مدونات المذاهب الأخرى قد انتشرت بعد، فكان فقه الإمام مالك من حصة شمالي افريقيا، كالمغرب والجزائر ..

الدرس السابع عشر: الإمام الشافعي: لمحة عن حياته

الإِمام الشافعي:

هو من وضع قواعد ومبادئ الاستنباط. لأن الإمام الشافعي دوّن قواعد الفقه الكلية وأصل أصوله، بعد أن كان الفقه مسائل جزئية غير مرتبطة ببعضها البعض، وغير قائمة على قواعد كلية وأصول ثابتة عامة (أي نظريات)، وقد وضع الإمام الشافعي أيضاً قواعد للرأي والاجتهاد، حتى لا يخرج الرأي والاجتهاد عن سنن الكتاب والسنة، وضبط قواعد للقياس وأقام مبادئ تُفرّق بين الحق

وفقه أهل الحجاز أي فقه الرأي وفقه الحديث بشكل معتدل وعلى أساس بين الضوابط والقواعد. اسمه وحياته: اسمه: محمد بن إدريس الشافعي ولد عام ١٥٠ ه في غَزّة وتوفي عام ٢٠٤ هـ بالاتفاق وهو بمذا عاش أقل من الأئمة الثلاثة. واتفق الباحثين في الشريعة الإسلامية على أن فقه الإمام

الشافعي يمثل الفقه الإسلامي في قمة نضجه وازدهاره.

والباطل فيما يتعلق بالأمور الاجتهادية التي لا نص فيها، فكان هو الذي جمع بين فقه أهل العراق

حياته: ولد الإمام الشافعي في غزة (جمهور المؤرخين) والده إدريس قرشي يلتقي نسبه مع رسول الله ويتيماً فقد ويتيماً فقد تعبد مناف الجد أما أمه فمن قبيلة أخرى عربية الأصل، أسرته فقيرة للغاية ربي يتيماً فقد توفي والده وسرعان ما ذهبت به والدته إلى مكة حتى لا يضيع نسبه ولكي يعيش حيث تتجمع قبيلة قريش فيعيش في أحضانها ثم إنه حفظ كتاب الله في صغره غيباً، ثم أقبل على الحديث يحفظه وكان يكتبه على الخزف والألواح والجلود حسب ما يتوفر له.

وصح أنه كان يذهب إلى الدواوين في مكة فيستوهب منهم ما يسمى بالظهور جمع ظهر: الورقة التي كتب على ظهرها وبقى الآخر.

روى بعض المؤرخين أنه يجلس ويسمع الحديث من الإمام مالك وكان يكتب ما يسمعه على يده (يتخذها وسيلة لنقشها في مخه).

ثم أرسلته أمه إلى إحدى القبائل العربية (قبيلة هُذيل) عربية أصيلة ليعيش بين ظهرانيهم والهدف أن يتشرب لسانه اللهجة العربية الفُصحى وأن يتحصّن لسانه ضد العجمة واللحن الذي بدء ينتشر عند بعض الألسنة وبهذا حفظ كثيراً من شعر الهذليين وكلامهم، واكتسب فيها أصالة اللغة العربية. لازم الإمام الشافعي الإمام مالك إلى وفاته عام ١٧٩ هـ وإلى هذه الفترة كان يعاني من الفقر ولا يبالي من أجل العلم ولما توفي كأنه أحس بفراغ كبير فالتفت يبحث عن عمل وقد وصل إلى قمة شبابه.

بحث له بعض القريشيين عن عمل في اليمن بواسطة والي اليمن لأنه لم يشأ أن يكون عالة على أحد، وقد بحث له عن عمل في نجران وأعطي له منصب الولاية وكان بمثابة المحافظ وعمل مدة لم تعرف ثم إن والي اليمن تحفظ عليه فوشى إلى هارون الرشيد بشأنه وعشرة معه وكانت الخلافة العباسية آنذاك تحسب حساب للشيعة، والتهمة التي كانت سبب وشاية والي اليمن إلى هارون

الرشيد هو حب الإمام الشافعي الشديد لآل بيت رسول الله وَاللَّهُ عَلَيْكُ وَكَانَ يُفضّل آل بيت المصطفى في الفتن التي ظهرت فيما بعد، ولذلك هنالك أبيات للشافعي يصور فيها أنه فئة رمته بالرفض وفئة بالتعصب.

إذا نحن فضّ لنا عليّاً فإنسا *** روافضُ بالتّفضيل عند ذوي الجهل وفضل أبي بكر إذا ما ذكرتُه *** رُميت بنصبٍ عند ذكريَ للفضل فما زلت ذا رفض ونصب كليهما *** أدين به حتى أوسد في الرمل

إن حبنا فطري طبيعي لآل البيت لكن لا يجب أن يصبح تشنجاً وتعصباً سياسياً يعود بالسب على بقية الصّحابة وقد ذكرنا موقف محمد الباقر والد جعفر الصادق عن سيدنا أبي بكر وعمر وعثمان. المهم أن التهمة كانت التشيُّع فأرسل له أن ابعثهم جميعاً مقيدين ونفذ الأمر وكان بينهم الإمام الشافعي، ولكن الله أنقذ الشافعي من هذه المحنة لسبين:

- ١. قوة حجة لسانه الذي كان يتمتع به ومنطقه الباهر وقد أعجب هارون الرشيد.
- 7. أن محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبو حنيفة كان آنذاك في مجلس هارون الرشيد، وكان قد التقى بالإمام الشافعي وعرفه، حيث أن للعلماء نسب أقوى من نسب الرحم، فشهد محمد بن الحسن للشافعي شهادة عظيمة فقال: إن لهذا الشاب قدر كبير من العلم، وليس بينه وبين التهمة صلة.

شيوخ الإمام الشافعي:

كأن هذه المحنة من الله عز وجل لإعادة الشافعي من عمل الدنيا إلى عمل الآخرة وهكذا عاد الإمام ليتمم ما ترك من دراسته عام ١٨٤ وذلك بأن تعرف على الإمام محمد بن الحسن وتتلمذ على يده ويقول: (أخذت من محمد بن الحسن وقر بعير من العلم أخذته سماعاً). ولازمه وأخذ منه وناظره في كثير من المسائل التي اجتهد فيها هو وأبو حنيفة على طريقة أهل الرأي وفي كتابه الأم الكثير من هذه المناظرات اللطيفة، وكان الإمام محمد يقدر الشافعي تقديراً عظيماً ولا يؤثر على مجلسه معه أي مجلس

ومن شيوخه مسلم بن خالد هو من أعطاه شهادة الإفتاء.

أقام الإمام الشافعي سنتين في بغداد ثم عاد إلى مكة ١٨٦ وأخذ يدرس في الحرم المكي وهي فترة ازدهار الشافعي والخصبة فقد بدأ يعمل كل تفكيره وذهنه في تدوين فلسفة للفقه وفي وضع موازين للاجتهاد حيث يجمع العقول المختلفة على هذه الموازين.

هنا اجتمع بالإمام أحمد وجلس إليه الإمام أحمد في مكة .. وعندما سئل عن جلوسه إليه أجاب الإمام أحمد: أما الحديث فإن غاب عنك عاليه أخذت نازله، لكن من لي – من أين لي – بعلم هذا الفتى لو تركته.

وفي هذه السنوات وضع وخطط لهذا العلم الجديد علم أصول الفقه (أصول الاستنباط) بل استخرجها من لسان العرب وبقي في مكة تسع سنوات على هذا العلم ثم عاد ثانية إلى بغداد ٥٩ وهو يحمل هذه القواعد الكليّة التي أصّل أصولها وضبط فيها المسائل الجزئية إلى جماعة أهل الرأي وهناك أخرج كتابه العظيم (الرسالة) الذي دوّن فيه القواعد.

وملخص كتاب الرسالة هو: أن أي علم يدرسه العالم الشرعي يجب أن يدور على فلك النص من الكتاب والسنة، فلا يجوز أن نأتي بأحكام منقطعة النسب عن القرآن والسنة، وأوضح فيها الإمام حجية القرآن والسنة لظهور من لا يلقي بالاً لحجية السنة (الزنادقة) لهذا سمى نصير السنة النبوية. ثم عقد باباً سمّاه الدلالات، وكيف تدل النصوص القرآنية أو السنية على المعنى؟ وكيف تدل النصوص القرآنية أو السنية على المعنى؟ وكيف تدل النصوص القرآنية أو السنية على معناه بعبارته وفحواه وعن خطابه وبالمفهوم الموافق والمفهوم المخالف؟ وكيف يدل بعلته؟ وكيف نستخرج قواعد القياس على النص في كتاب الله تعالى؟ وإذا ورد إلينا نص عن رسول الله ولين الأحاد هل هو حجة أم لا؟ وأوضح كيفية البيان وكيف أن القرآن بيان بعضه لبعض؟ وأن النص قد يكون عاماً وخاصاً، مطلقاً ومقيداً، والعام يأتي نص خاص، والمطلق يأتي نص مقيد يفسره، وهل يمكن للسنة تقيد النص القرآني يفسره العام؟ وهل يمكن للسنة تقيد النص القرآني يفسره العام؟ وهل يمكن السنة تقيد النص القرآني المطلق؟ وهل يمكن العكس؟ فهي مفاتيح لكي نستخدم أحكام الشرع، ولفقر المجتمع الإسلامي في هذا وحاجته لمثل هذا الكتاب أقبل علماء العراق جميعاً على هذا ولفقر المجتمع الإسلامي في بغداد سنتين.

ومن ألمع أساتذة الإمام الشافعي هم الأئمة: مالك ومسلم ومحمد ولكن موقفه بالنسبة للإمام مالك بالذات فقد كان إلى شطر حياته يعد من تلامذته وكأنه يسير على مذهبه، وكان إذا وضع بعض المسائل التي يخالف فيها رأي الإمام مالك لم يمل إلى مناقشته.

موقف الإمام الشافعي من الإمامة كان يرى أن الأولى بالخلافة بعد وفاة رسول الله وَاللَّهُ عَلَيْكُمُ هو أبو بكر فعمر فعثمان، واعتمد في هذا على جملة الأدلة.

لكن الإمام الشافعي فيما يتعلق بالفتنة التي قامت فيما بعد بين معاوية وسيدنا على رضي الله عنه، يرى ويجزم بأن الحق في حانب سيدنا على وأن الطرف الثاني هو الطرف الباغي وأوضح ذلك في كتاب (الرد على سير الأوزاعي)، ولسنا نسيء لسيدنا معاوية في كلمة البغي، وإنما البُغَاة: هم الذين تمردوا على الدولة بحجة شرعية ولهم اجتهادهم في ذلك ولهم سلطة. هل هم آثمون ..؟ لا، لأنهم مجتهدون ولخليفة المسلمين أن يقاتلهم وهو أيضاً مجتهد في هذا.

الدرس الثامن عشر:

الجانب العلمي في شخص الإمام الشافعي، موقف الإمام الشافعي من الخلافة، موقف الإمام الجانب العلمي في شخص الشافعي من علم الكلام، كتاب الرسالة.

موقف الإمام الشافعي من الخلافة:

الإمام الشافعي كان يرى أن الإمام بعد الأئمة الأربعة يتبوأ بالخلافة وينبغي أن يدين الناس له بالولاء عن طريق البيعة أولاً، طبعاً لكن لو هيمن على الحكم عن طريق القوة ودان له الأمر يرى الإمام الشافعي وجوب طاعة الأمة له وانقيادها، وحين سئل عن ذلك قال: هذا هو السبيل الأوحد لدرء الفتنة مادامت القوة أصبحت بيده، فلو وقفنا منه موقف البيد لتحول الأمر بيننا إلى حروب، لكن بشرط أن يكون قرشياً إن أمكن، فينبغي أن يكون الإمام عالما .. وعادلا .. وهناك شروط للخلافة إن توافرت فالبيعة حيدة، وهذا ما ذهب إليه جل علماء المسلمين أيضاً.

موقف الشافعي من علم الكلام؟:

علم الكلام: هو العلم الذي يُستدل به على وجود الله، ويراد إثبات العقائد الإيمانية فيه بواسطة الفلسفة والدلائل العقلية، بعيداً عن دلالات النصوص ومستنداتها.

الإمام الشافعي كان يكره علم الكلام والخوض فيه وهو موقف أجل العلماء المحدثين في عصره، والسبب: هو أن المعتزلة هم أول من ناقشوا في أمور العقائد بناءً على الفلسفة اليونانية التي ترجموها دون أن يستوعبوها.

وقد لاقوا من الشافعي الكثير من الزجر لأنهم قللوا من الاعتماد على النص بل قرروا الاعتماد على القرآن فقط، ولهذا وقف في وجههم وقفةً يذكرها التاريخ له ولهذا سمى (ناصر السنة).

هنا لا بد ان نقول: أن علم الكلام ما دامت الحاجة غير موجودة إليه، يصدق عليه ما قاله الإمام الشافعي، إذا وجدتني بين إخوة أستطيع من خلال الآيات القرآنية وعرضها أن أدخل في عقولهم مبادئ العقيدة الإسلامية كوجود الله وصفاته .. إذاً يحرم عليّ أن أتجاوز هذا المنهج إلى هذه الأدلة العقلية الفلسفية.

أرأيت لو أن أناساً حمّلت عقولهم أوقاراً مِن الفلسفات الباطلة، كطلاب قسم الفلسفة بكلية الآداب حشيت عقولهم بفلسفات إلحادية ثم حاؤوا يهرعون ويسألون عن موقف الرّين من هذه الأمور؟ وكيف السبيل للتخلص منها؟ هنا ينبغي أن أضع هذه المسائل الذين حشيت عقولهم بميزان البحث وينبغي أن أكشف لهم عن بطلانها، فهذا المرض دواؤه هذا العمل .. عند الحاجة إلى ذلك.

الإمام الشافعي في فترة عودته من بغداد إلى مكة أرسل إليه (عبد الرحمن بن مهدي) يطلب منه أن يوافيه برسالة يبين فيها علاقة القرآن بالسنة وأصول البيان التي ينبغي أن يعتمد عليها في فهم نصوص القرآن، وأن يتحدث عن الناسخ والمنسوخ والتنسيق بينهما، وعلاقة القرآن بالسنة فيما يتعلق بالناسخ والمنسوخ، وأن يتحدث عن الاجتهاد وضوابطه.

فعكف الإمام الشافعي على الاستجابة لطلبه وأنجز له رسالة الرد التي طلبها منه ابن مهدي وكانت عبارة عن كتاب قرابة ٢٠٠ صفحة (الرسالة)، وهو أول مدونة في وضع القواعد الأساسية للاجتهاد لما يسمى بأصول الفقه (قواعد تفسير النصوص) والواقع أن الحافز له لم يكن متمثلاً فقط في الرسالة بل هنالك حافز آخر، عندما أقام بالمدينة يحضر عند الإمام مالك كان يُعد تلميذاً له

وواحداً من أتباعه في المذهب، فلما ذُهب به إلى بغداد وتذكروا الحكمة الإلهية حين وشي به إلى هارون الرشيد واتحامه بالتشيع ثم بقي هناك ووجد نفسه أمام فقه الإمام أبي حنيفة ومحمد الشيباني، فتحول عن السياسة والولاية إلى عمله وهو دراسة العلم، ولذلك لما أقام في بغداد تحول من تلميذ للإمام مالك إلى إنسان يعود ليضع أمامه أساس من المقاييس العلمية التي أكرمه الله بحا قانوناً يوفق به ما بين فقد أهل الحجاز وفقه أهل العراق، وتبين بذلك أن هناك خيراً كبيراً في احتهادات أهل العراق والحجاز، فأوجد بينهما صلحاً عن طريق وضع قانون يلتجأ إليه الطرفان في تفسير النصوص وفي أصول الاجتهاد عندما لا يوجد نص، وهكذا تحول من تلميذ للإمام مالك إلى إنسان يناقشه ويناقش أهل الرأي، ويضع لهؤلاء وهؤلاء منهجا في فهم الكتاب والسنة وفي الاجتهاد، فهذا هو الحافز الأول للإمام الشافعي ليعكف على إنشاء كتاب الرسالة ..

كتاب الرسالة:

البحث الأول في هذا الكتاب هو: البيان وأنواعه: التي يتمتع بما النص ودرجاته في القرآن، ثم إنه يتحدث عن النص بالقرآن عندما يكون عاماً هل يمكن أن يوجد ما يخصصه؟ وهذا العام هل يمكن أن يكون عاماً باللفظ لكنه خاص بالمعنى؟ ... ثم تحدث عن علاقة القرآن بالسنة، فقد وجدت فئة من الزنادقة ينادون بأن المرجع الأوحد في الشريعة هو القرآن ولا داعي للسنة.

البحث الثاني: ذكر فيه الأدلة القاطعة على أن السنة جزء لا يتجزأ من كتاب الله عز وجل: ومن لم يتمسك بالسنة لم يتمسك بالقرآن والأخذ بالقرآن لا يمكن أن يتم إلا بالأخذ بالسنة، فشهد ذلك العصر أن الإمام الشافعي هو من أسكت أصحاب دعوة الاكتفاء بالقرآن – الزنادقة ثم بين العلاقة بينهما هل تخصص السنة القرآن أم لا؟ ثم تحدث عن النسخ وأوضح وجوده ولا يقول بخلافه إلا جاهل، ولا يمكن أن ينسخ القرآن إلا القرآن ولا ينسخ السنة إلا السنة، ثم قال فإذا وجدت قرآناً قد نسخ سنة فلا بد أن يكون مع القرآن سنة تؤيد تلك السنة، وإن وجدت سنة قد نسخت قرآناً فلا بد أن تجد مع القرآن المنسوخ آيةً تدعم تلك السنة.

ثم تحدث عن الاجتهاد: وأنه لا يكون إلا على نص موجود في القرآن أو في السنة أو على علةٍ توصلك بنص موجود فالاجتهاد بدون شيء يدور على محوره الاجتهاد مستحيلاً وباطلاً، وينتهي

إلى أن الاجتهاد والقياس شيئاً واحداً فالاجتهاد يؤدي إلى القياس والقياس هو عملية اجتهادية ... ثم تحدث عن الاستصلاح والاستحسان ...

ومعنى قول الإمام الشافعي في باب إبطال الاستحسان: من استحسن فقد شرّع، أي من استحسن إيجاد حكم شرعي لا دليل له ولم يعتمد فيه على الاجتهاد الذي ضبطه بضوابط من القرآن أو السنة فهذا مُشَرّع ولا مشرع إلا الله.

والاستحسان عند الإمام ابي حنيفة: هو دليل علمي شرعي ينقدح في ذهن المحتهد تديق عبارته عنه.

وهناك أمثلة على ذلك - ما قصده الإمام أبي حنيفة - :

إذا شهد أربعة أشهاد على شخص بارتكاب الفاحشة فاختلفت أقوالهم في وصف الفاحشة، واتفقوا على ارتكاب الفاحشة، مالحكم؟ الجواب: قوله عليه السلام: (ادْرَءُوا الحُّدُودَ بِالشُّبُهَاتِ مَا اسْتَطَعْتُمْ) قال الإمام أبي حنيفة: بعدم قبول شهادة الأشهاد لاختلافهم، إذاً تعرضوا للحد ثمانين جلدة، فنتيجة هذا استصدم الحكم بحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام: (ادْرَءُوا الحُّدُودَ بِالشُّبُهَاتِ مَا اسْتَطَعْتُمْ)، فقال الإمام أبي حنيفة بقبول شهادتهم في رفع الحد عنهم وفي الوقت ذاته لا نقيم الحد على المتهمين بسبب وقوع الشبهة .. وكان دليله بذلك الاستحسان وكان مصدره حديث النبي عليه الصلاة والسلام السابق.

إذاً قوله عليه الصلاة والسلام: (ادْرَءُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ مَا اسْتَطَعْتُمْ) يفيد الشهود ويفيد المشهود عليه.

أما الإمام الشافعي فكان يرى للاستحسان معنى مخالف لما كان يراه أبي حنيفة رضي الله عنهما.

٥٣

الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي المعافى، وروي بألفاظ قريبة بعدة روايات في الترمذي وابن ما ماجه والمستدرك.

الدرس التاسع عشر:

الإمام الشافعي: حياته في مصر وكتاب الأم. أصحاب الإمام الشافعي: الربيع بن سليمان المرادي، إسماعيل بن يحيى المزني، أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي.

حياة الإمام الشافعي في مصر إلى وفاته بها:

من المشهور عن الإمام الشافعي أنه كان له مذهبان قديم وحديث أما القديم فهو الذي دونه وكان يفتي به عندما كان في العراق في المرة الأولى والثانية وعندما كان في مكة، لكن لما ذهب إلى مصر عام ١٩٩ وأقام هناك بقية حياته، ورأى عادات جديدة فيها واطلع على أحاديث أيضاً لم يكن قد اطلع عليها، رجع عن كثير من آرائه في المذهب القديم ودون رأيه الجديد في كتاب كبير اسمه (الأم).

هذا الكتاب ألفه في المرحلة الأخيرة من حياته، وفيه حوالي ٢٢ مسألة من رأيه القديم يفتي بها الآن ولم يغير رأيه فيها.

ولا بد أن نعلم أن الإمام الشافعي قبل أن يغير مذهبه إلى حديد، كان قد وصل إلى أعلى شأوٍ في دراية القرآن والسنة وحفظ كتاب الله تعالى ومعرفة اللغة العربية، فمفتاح الاجتهاد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله: هو البصيرة، التي ينبغي أن يتمتع بها المجتهد في معرفته (اللسان العربي) وقد قالوا: بأن لغة الإمام الشافعي يُحتج بها في قواعد اللغة العربية.

بقي الإمام الشافعي في مصر أربع سنوات وعدة أشهر، إذاً كان جل عطاء الإمام الشافعي في مصر، وكان ظهور كتابه (الأم) الكبير وهو أكبر ما دونه في مصر.

عندما وقع في سياق الموت دخل عليه بعض أصحابه ويسألونه عن حاله، فكان يجيب: "أُراني للدنيا مفارقاً ولأصحابي مفارقا وإلى الله مقبلا، فلا أدري أألقى مغفرة وعفواً فأهنئ نفسي بما؟ أم ألقى عقاباً على تقصيري فأعزي نفسي بما؟". ثم أنشد:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي *** جعلت الرجا مني لعفوك سُلّما تعاظمني ذنبي فلما قرنته *** بعفوك ربي كان عفوك أعظما فما زلت ذا صفح عن الذنب *** لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

أما أصحاب الإمام الشافعي وتلامذته:

من أبرزهم: (الربيع بن سليمان المرادي) وهو من مصر وهو الذي روى كتاب الإمام الشافعي الأم، ومنهم (اسماعيل بن يحيى المزين) وكان من أخص تلامذته ثم تمرّس بالحديث ثم أصبح مجتهداً مطلقاً وهو مصري أيضاً، ومنهم (أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي) نسبة إلى بويط، قرية من قرى صعيد مصر وكان من أجل تلامذته ثم من أبحر علماء الشريعة الإسلامية وكان معروفا بالورع والزهد والتقوى).

امتحن بذلك أيضا الإمام الشافعي وقد طُلب منه أن يقول: أن القرآن مخلوق. فوضع يده على القرآن ويقول: هذا مخلوق، وكان يقصد بذلك غلافه والحبر الذي كتبت الآيات فيه والورق، وكان ذلك من حكمته رضى الله عنه.

انتشار المذاهب الشافعي:

انتشر مذهب الإمام الشافعي في ربوع الجزية العربية وفي مصر، وانتشر في العراق مع مذهب الإمام أبي حنيفة أيضاً، ففي منطقة الشرق الأوسط احتضنت هذه المنطقة مذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام أبي حنيفة، أما مذهب الإمام مالك فانتشر في شمال إفريقيا.

الدرس العشرون:

الإمام الشافعي: موقف الإمام الشافعي من علم الكلام. الإمام أحمد بن حنبل: لمحة عن حياته.

موقف الإمام الشافعي من علم الكلام:

قلنا في الدرس السابق عن موقف الإمام الشافعي من علم الكلام، وأنه لم يكن موقفه منه موقف بالأدلة العقلية وأبواب هذا العلم وإنما كان خبيراً به فهو مضرب المثل في النقاش والحجج وقد ذكر في كتابه (الأم أو الرسالة) كثير من المسائل التي خاض بما في هذا، ولكن عند الضرورة وقلنا بأنه ينبغي الرد على شبهات الملاحدة الذين فتنوا بالمادية الجدلية يكون بفتح ملف علم الكلام أي باستعمال الأدلة العقلية التي تثبت العقيدة الإسلامية والتي يتبين من خلالها دجل المادية الجدلية المركسية هكذا ينبغي أن يكون ردنا على من حُشيت دماغه أفكار علم الكلام.

الإمام أحمد حنبل:

والآن ندخل بالحديث عن رابع أئمة المذاهب الأربعة وهو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه. ولد ببغداد عام ١٦٤ هـ وتوفي عام ٢٤١ هـ، وأجل ما عرف به وأجمعت الأمة عليه هو صلاحه وورعه وأجمع كل الناس بالاتفاق في عصره أنه مضرب المثل في التقوى والصلاح، وقال بعض العلماء: لو قال أحد الناس إن الإمام أحمد من أهل الجنة لما حنث بكلامه، ولما تؤول على الله لأن الناس في عصره على إجماع بذلك، والله عز وجل جعل إجماع الأمة حجة.

ولد الإمام أحمد في بغداد ويلتقي نسبه مع رسول الله والمسلطة عند نزار بن معد، وهو عربي أصيل من قبيلة شيبان نشأ نشأة مشابحة لنشأة الشافعي، فقد توفي والده وهو صغير كان فقيراً متعففاً معتزاً متسامياً عن العطاء، وتولت أمه رعايته وحفظ القرآن وهو صغير، فلقد كانت أول مرحلة في هذه الفترة من مراحل تربية الأطفال عموماً هو إتقان تلاوة الطفل القرآن عند من تلقاه من الأئمة قبله وهكذا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهذا أقل ما ينبغي لتربيتهم، ثم لما انتهى ابن حنبل رضي الله عنه وحفظ القرآن اتجه به أهله إلى الديوان لتعلم الكتابة ويقول عن نفسه: "كنت غليما أختلف إلى الكتاب ثم اختلفت – أتردد – إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة "، ثم بدأ يتحه إلى بجالس العلم، واختار منها علوم الحديث، فاتجه إلى علمائه ردحاً من الزمن، وقد تتلمذ أولاً على يد القاضي أبو يوسف، وغشي مجالسه ودروسه، ثم إنه لم تطب له هذه المجالس الفقهية (فقه الرأي)، فتحول عنها لأنه قد تغلب عليه نزعة الحديث، انقطع عن أبي يوسف وواصل دراسة الحديث لم يعد يخشى على نفسه من أن يجره فقه الرأي إلى البعد عن النصوص فقد تسلّح بمعرفة الحديث لم يعد يخشى على نفسه من أن يجره فقه الرأي إلى البعد عن النصوص فقد تسلّح بمعرفة الخديث لم يعد يخشى على نفسه من أن يجره فقه الرأي إلى البعد عن النصوص فقد تسلّح بمعرفة الخديث الفقهية.

نشأ ابن حنبل رضي الله عنه في عصر المتوكل .. وكان المتوكل يحبه ويعطف عليه بعكس من قبله من الخلفاء فكان يرسل إليه العطاء وكان يرد عطاءه بتواضع جم ولا يستكبر أو يتأفف.

حببت إليه الهجرة، هاجر خمس مرات من بغداد إلى الحجاز، وهاجر إلى البصرة خمس مرات أو يزيد، وهاجر إلى اليمن، وكان شديد الورع، وضع خطة لنفسه عام ٩٨ أن يذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام، ثم أن يذهب من هناك إلى اليمن ليأخذ الحديث من عبد الرزاق، وأتيح له أن يصاحب

صديقاً له هو (يحيى بن مَعين) ذهبا معاً إلى بيت الله الحرام ليحجا، ومن ثم ليذهبا إلى اليمن ويتلقيا الحديث عن عبد الرزاق، ولما وصلا إلى مكة وأثناء طوافهما بالبيت الحرام، صادفا عبد الرزاق يطوف بالبيت الحرام معهما، قال له – لأحمد بن حنبل – يحيى بن معين: لقد كفانا الله مؤونة السفر إلى اليمن، فأجابه ابن حنبل رضي الله عنه: لا .. لقد عزمت على أن أذهب من بعد الحج إلى اليمن في سبيل التلقي ولسوف أضاعف الاستفادة، فأخذا يستفيدان منه ويجلسان إليه طوال مدة إقامة الإمام عبد الرزاق في مكة، ولما اتجه عائداً إلى اليمن ذهب معه إلى اليمن وبقي هناك سنتين وهو يتلقى العلم، فقد كان يرى أن العلم يُؤتى ولا يأتي، وأنه يجب أن يشكر الله بأن أتعب نفسي في سبيله، وأن لا أغير القصد الذي وضعته بين حوانحي.

الدرس الواحد والعشرون:

الإمام أحمد بن حنبل: رحلاته العلمية، آراؤه في العقيدة الإسلامية، آراؤه في السياسة

رحلات الإمام أحمد حنبل العلمية:

كان الإمام أحمد ممن حُبَبَت إليه الرّحلة في سبيل العلم، طوّف بالأقاليم المختلفة التي يعلم أن فيها علماء ليأخذ منهم الحديث ويرويه عنهم، وكان لا يستكثر الكثير، قوي الحافظة ولا يعجز عن الكد في سبيل العلم، لقيه مرّة أحد العلماء فقال له: إلى متى تطوف في البلاد وتحمل هذه المحبرة فأجابه: مع المحبرة إلى المقبرة ..

كان الإمام أحمد يتفاعل مع أنه كلما ازداد علماً ازداداً شعوراً بأن هناك مزيداً من المعارف التي ينبغي أن يصل إليها، فكلما ازداد معرفة دلّته معرفته هذه التي حصل عليها على مساحات جهله. حج الإمام أحمد خمس مرات ثلاث منها ماشياً ولعل إحداها كانت من بغداد.

الإمام أحمد كان شديد التمسك بالنص، وعدم الانحراف إلى البدعة وتخوفه الشديد منها، ومنهم من يقولون: بأن كلامه هذا من البدعة، والمعلوم أن البدعة: هي الجديد الذي أُقحم في الدين وهو ليس منه.

سيدنا الإمام أحمد عندما حج ماشياً لا نستطيع القول بأنه ابتدع، فليس ما لم يفعله رسول الله بدعة بالضرورة، فسيدنا النبي والميني والكينية حج راكباً، نعم ولكنه لم ينهى على أن يحج أحدنا ماشياً، إذاً

لم يبتدع الإمام أحمد في ذلك، وإنما رغبة بالثواب فقد علمنا قاعدة "أن الثواب على قدر المشقة"، إلا إذا علمنا أننا لن نزج أنفسنا في ضرر.

كان جهده رضي الله عنه في أكثر تطوافه وجُل رحلاته منصباً لرواية الحديث الشريف عن رسول الله والله عنه وجلس إليه فانبهر بعلمه، وفي حجة من هذه الحجج لقي الإمام الشافعي رضي الله عنه وجلس إليه فانبهر بعلمه، وأخذ منه قواعد استنباط الأحكام من النصوص طبق قواعدها، فأخذ منه قواعد أصول الفقه وقواعد الناسخ والمنسوخ وغير ذلك.

خلال حياته كلها لم يجلس الإمام أحمد لا للفتوى ولا لرواية الحديث، إلى أن أصبح عمره أربعين عاماً جلس للتحدّيث طبقاً لسنده وحلس للفتوى أيضاً ..

كان أشد حوفاً من إفتائه للناس من حوفه من رواية الحديث فقد كان محدثاً أكثر منه فقيهاً إلى تلك الفترة.

طريقته في التحديث والفتوى:

فكان يأذن للجالسين في مجلسه أن يكتبوا الأحاديث التي يرويها، بل كان يلح على ذلك، وذلك بعد أن جلس للتحديث حتى لا يقع هو أو هم مخطأ في الرواية، أما حين جلس للفتوى لم يأذن لهم بالكتابة من بعده، وأنكر على من يكتب وغضب لذلك، وكان إذا كتب أحدهم يطلب منه تمزيق ما كتب لأنه يخشى أن يأتي يوم يعود فيه عن هذه الفتوى ويرى أنه قد أخطأ فيها ويصعب عليه تعقب الإنسان الذي كتب، ويأتى به ليقول له: لقد غيرت الفتوى التي كتبتها ...

أما آراؤه في العقيدة الإسلامية:

بكلمة جامعة نقول ليس فيما كان يتبناه الإمام أحمد من مسائل العقيدة أي فرق بين ما يعتقده وما يعتقده وما يعتقده أهل السنة والجماعة، لكن هنالك اليوم من يكفر مرتكب الكبيرة ويروي ذلك عن الإمام احمد ...؟!

الأمر ليس كذلك والذين يكفرون مرتكب الكبيرة هم الخوارج، سئل الإمام أحمد عن رجل رؤي يشرب خمرة هل نكفره ...؟

قال: لا .. إن قال لك: أنه يستبيحها وهو يعلم حرمتها فعندئذ يكون قد خرج من الملة لا بشربه لها وإنما بإنكاره لحرمتها، فالسلوك لم يكفره وإنما قراره الذي أدلى به بفمه باستباحتها.

وفي القضاء والقدر أيضاً كان يقول ما يقوله أهل السنة والجماعة بوجوب الإيمان بهما، وأن كل ما يقع في الكون هو ما يريده الله، وأن نعلم أن كل أفعالنا مخلوقة بخلق الله عز وجل وليست مخلوقة منا نحن وخالفوا في هذا المعتزلة، والإمام أحمد لم يكن يناقش المعتزلة المناقشة التي يستجر بحا إلى علم الكلام ولكن بالدليل الذي ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان يعتقد أن كل صفات لله سبحانه هي كل ما أثبته في قرآنه وكل ما يدخل في صفات الكمال، وأن صفاته سبحانه وتعالى قديمة قدم ذاته وكلام الله سبحانه صفة من صفاته ... فهو السميع البصير المتكلم ...

ومن هنا كان يؤكد بأن القرآن ليس بمخلوق لأنه صفة الله سبحانه وتعالى، وعِلْم الله قديم قدم ذاته والقرآن يتضمن عِلْم الله.

أما موقف الإمام أحمد في السياسة:

فلو سئل عن خليفة ظهر فيه الفسق، هل يُفسد الفسق خلافته؟ ومن ثم يجوز لنا الخروج عليه ..؟ فيقول: لا يجوز الخروج عليه وإن كان فاسقاً، - والفاسق هو من ارتكب كبيرة لم يتب منها أو أصر على صغيرة، - .. لأن الخروج عليه بسبب الفسق يزج الأمة في ضرر أشد من ضرر فسقه، فإن يأمرك بمنكر إياك أن تطيعه، وإن نماك عن معروف إياك أن تطيعه، فلا سمع ولا طاعة فيما يخالف أمر الله، أما الخروج على الحاكم فهو أمر آخر لا علاقة له بالسمع والطاعة.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، تطيعه في المباحات، وفيما يرتكب هو بسببه محرماً لكنك لم ترتكب أنت بسببه محرماً، أما الخروج على الحاكم فلا يجوز إلا إذا رأت الأمة كفراً بواحاً بل يجب الخروج عليه في هذه الحالة.

الدرس الثاني والعشرون:

الإمام أحمد بن حنبل، أشهر عمل خلفه وهو كتابه المسند، هل كان الإمام أحمد فقيهاً بمقدار ما كان محدثاً؟ الصفات التي ظهرت في حياة الإمام أحمد: الحافظة القوية – الصبر الجميل والجلد – نزاهة النفس والعفة – الإخلاص

أشهر عمل خَلَّفَه الإمام أحمد بن حنبل:

الآن نتكلم عن أشهر عمل خلفه الإمام أحمد من ورائه وهو المسئل وهو حصيلة عمر طويل بدأ منذ كان عمره عشر سنوات في جمعه، فهو لم يجلس عليه بضع سنوات لا بل جمعه على مدى عمره كله، فهو جمع ونسق ودقق في الأحاديث حين كان يتلقاها من مشايخه، وبعد أن أحس بالموت يداهمه والمرض يركبه وخاصة بعد المحنة، جمع أهله وأخبرهم بعمله هذا ووكل الأمر إلى ابنه عبد الله بن أحمد رضي الله عنه، ورتب الأحاديث بحسب أسماء الرواة من الصحابة.

ومن المعلوم أن الأحاديث الضعيفة لا تُرفض دائماً، فالأحاديث الضعيفة التي ترفض في مجال بناء الأحكام عليها هو ذاك الذي لا يوجد حديثاً آخر قوياً يدعمه، كذلك كثيراً ما يكون موضوع الحديث الضعيف متعلقاً بأمر داخل في فضائل الأعمال أي الطاعات التي توافرت أدلة كثيرة عليها كحديث ضعيف يبين لنا فضل الصلاة على رسول عليه الصلاة والسلام فقد روى من الأحاديث الصحيحة في فضل الصلاة عليه ورود حديث ضعيف لا يؤثر، فنقول هذا الحديث تعلق لفضيلة من الفضائل الثابتة، وكذلك إن جاء حديثاً ضعيفاً يبيّن لنا فضائل الصدق ونوافل الصلاة وغير ذلك فكثيرة هي الأحاديث الصحيحة التي تدل عليها. فالإمام أحمد حين يجد أن الحديث الضعيف يتعلق بفضائل الأعمال وثبت عنها حديثاً صحيحاً فيذكره.

إذا الحديث الضعيف يروى لكن بشروط:

الا يكون متعلق بالأحكام والعقائد (أي متعلق بالفضائل) ويؤيدها القرآن والسنة، من صدق غيبة

- ٢- ألا يكون شديد الضعف متناهياً (بينه وبين الوضع شيء قليل).
 - ٣- ألا يعتقد الراوي أو يوهم الناس أنه حديث صحيح.

إضافة إلى ذلك الإمام أحمد لا يروي حديثاً إلا بسنده والعلماء يقولون: من أسند فقد أسلمك، أي جعلك أنت المسؤول وأبعد المسؤولية عنه، فهو لا يخدعك.

هل كان الإمام أحمد فقيهاً أم كان محدثاً ..؟

هناك من العلماء من اعتبره محدثاً كالإمام الطبري وغيره وذلك لأسباب:

- لأن اهتمامه الشديد منذ أول شبابه كان برواية الحديث.
- اهتمامه بمسنده فهو لم يخرج كتاباً في الفقه كالإمام الشافعي وإنما ترك مِن ورائه مسنداً في الحديث.
- أنه كان عندما جلس للفتوى في عهد متأخر من حياته لم يكن يأذن للجالسين نقل الفتاوى عنه وقد ذكرنا سبب ذلك في الدرس السابق.

ولقد جلس الإمام أحمد إلى الإمام الشافعي في بغداد وفي مكة أيضاً وأخذ منها الكثير الكثير.

أبرز صفات الإمام أحمد بن حنبل:

ومن صفات الإمام أحمد رضي الله عنه: الحافظة القوية: التي متعه الله بما فمنذ أن كان بعمر خمسة عشر كان يجلس إلى شيوخه ولا يقوم من مجلسه إلا وقد وعي ما قد سمع.

الصفة الثانية: الصبر والجلد: فقد صبر على الشدائد التي تحملها في حياته، وصبره في رحلاته التي يكون فيها ماشياً على قدميه حاملاً أوقاراً من الكتب لا يكل ولا يضعف، ثم صبره على المحنة التي ابتلي بما مدة طويلة وكان صبره جميلاً دون تأفف أو توجع وكان مصدر صبره الاحتساب عند الله ومجبته لله سبحانه فمن عرف الله أحبه ومن أحبه صبر على الشدائد.

المزية الثالثة: نزاهة النفس والعفة: كان فقيراً وبمقدار فقره كان متعففاً مترفعاً عن الطلب، بعد المحنة كانت الدولة ترعى شأنه، وكان المتوكل يكرمه بالعطاءات الكثيرة ولكنه لا يقبلها، كان زاهداً ولا يُدخل إلى جوفه إلا المال الحلال، دخل عليه رجل من أصحابه اسمه عمر بن صالح الطرسوسي وسأله عن السبيل إلى رقة القلب فأجابه: أكل المال الحلال، ذهب هذا السائل فرأى بشر الحافي وسأله ذات السؤال فأجابه بشر: ألا بذكر الله تطمئن القلوب، فقال: ولكني سألت أحمد بن حنبل فأحابني: بأن السبيل إلى ذلك أكل المال الحلال، فقال: نعم هذا هو الأصل، فإن أكثر المرء من الذكر وجوفه ملىء بالمال الحرام لن يستفيد من كثرة الذكر أبداً.

المزية الرابعة: الإخلاص لله عز وجل: وهو الذي صبره وهو الذي جعله يفطم فمه عن الحرام وإخلاصه طهر قلبه من الشحناء والحقد على من كان سبب محنته.

المزية الخامسة: أنه كان يتصف بالهيبة: رغم تواضعه الجم فلم يكن متكبراً، لكن كان الجد يغلب على حياته فلم يكن يمزح حتى أن شيوخه كانوا يهابونه.

شيوخ الإمام أحمد بن حنبل:

هم كثر يناهزون المئة فلم يترك مدينة إلا ورحل إليها ويأخذ مِن علمائها ولكن كان له شيخان يعتز بحما الأول له تأثير كبير على حياته كمحدّث واسمه: هشيم بن بشير، هذا من أجل أساتذته وهو الذي رسّخ عنده حب خدمة ورواية الحديث ودرس عليه حوالي خمس سنوات.

شيخه الثاني الإمام الشافعي وهو من رسّخ في كيانه حب الفقه وتعشق المنهج الذي كان يبصّر به الإمام الشافعي الناس، وهو يروي الحديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

كان الإمام أحمد يعتز بماذين الشيخين له وتتلمذه عليهما، لكن بالإضافة إلى مئات المشايخ له، وكان له شيخان لم يرهما وكان يسمع مناقبهما ويحاول أن يتأسى بهما بدقة أحدهما سفيان الثوري والثاني عبد الله بن مبارك.

الدرس الثالث والعشرون:

الإمام أحمد بن حنبل، شيوخ الإمام أحمد بن حنبل: سفيان الثوري – عبد الله بن المبارك، الأصول الاجتهادية التي سار عليها الإمام أحمد، النصوص من الكتاب والسنة، فتوى الصحابة للإمام أحمد بن حنبل شيوخ كثيرون ومن أجلهم الإمام الشافعي والإمام هشيم بن بشير، وقلنا أنه كان للإمام أحمد بن حنبل شيخان لم يرهما، وكان يسمع مناقبهما ويحاول أن يتأسى بحما بدقة أحدهما سفيان الثوري والثاني عبد الله بن مبارك رضى الله عنهم.

لقد اتخذ الإمام أحمد سيدنا سفيان الثوري أستاذاً لنفسه وعندما ننظر في مناقبه نجدها تنطبق على المناقب التي يتسم بما الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وكان يقول الإمام أحمد عن سفيان الثوري: لا يتقدمه في قلبي أحد، وكان يصفه وحده بالإمام دون غيره من العلماء.

وبهذه الهناسبة نذكر بعض مناقب سفيان الثوري:

أولاً عاش فقيراً وكان يعيش على ميراث وصل إليه من عمه، واكتفى به وكان عفيفاً كان ناصحاً للخلفاء، وربما أغلظ بعض الأحيان في القول إن اقتضت المناسبة، ولم يقبل بالقضاء حين عرض عليه أبو جعفر المنصور منصب القضاء .. مات سنة ١٦١ أي قبل ولادة الإمام أحمد بثلاث سنوات.

وكان يؤثر العزلة والخمول، أي البعد عن الشهرة والعمل الدائب بعيداً عن الأضواء، وكان يدعو إلى ذلك، هذا إلى جانب علومه في الحديث والعلوم الأخرى .. وهذه الأخلاق كلها اجتمعت في وصف الإمام أحمد.

أها عبد الله بن الهبارك:

فكانت حياته في مظهرها كانت على النقيض من حياة سفيان الثوري من الناحية المادية، فقد كان مكثراً وكان مضرب المثل في الغنى ولكن الجامع المشترك بينهما الورع والزهد وإيثار الخمول والعزلة، فكانت الثروة في حياة عبد الله بن المبارك هي المنطلق لهذه الصفات من زهد وورع وغير ذلك، وكانت قلة المال في حياة سفيان الثوري هي المنطلق لهذه الصفات ذاتها.... كيف ذلك..؟ لأن الزهد لا علاقة له بالكم المالي.

عاصر عبد الله بن المبارك الإمام أحمد وبلغ الإمام أحمد أن ابن المبارك موجود بالعراق فلما شد نفسه إليه قيل له بأنه سافر إلى طرطوس وما مضى سنة أو أكثر إلا وجاءه نبأ وفاته وكان عام ١٨١.. وهذا الذي جعل الإمام أحمد منه شيخاً له دون أن يلقاه.

كان عبد الله بن المبارك رفيع الأخلاق بعيداً عن الجاه وعن السلطان ولكن الله عز وجل شاء أن يكون كثير المال وكان مضرب المثل بالعطاء، وكان إلى جانب ذلك مجاهداً فلم يكن يخرج المسلمون في جهاد إلا ويكون معهم وكثيراً ما كان يبارز متخفياً متلثماً حتى لا يعلمه أحد، وكان عالماً بالحديث محدّثاً ...

فهذه خلاصة ترجمة كل من الإمامان اللذان اختارهما الإمام أحمد شيخان له.

ما هي الأصول الاجتهادية (استنباط الأحكام) التي اعتمدها الإمام أحمد..؟

يروي الإمام ابن القيم في كتابه – إعلام الموقعين – بياناً مفصلاً لمنهج الإمام أحمد في الاجتهاد: أولاً: المصدر الأول للحكام في اجتهاد الإمام أحمد هو النصوص من القرآن أو من السنة: فإذا وحد للحكم بياناً من خلال نص من القرآن أو السنة واضحاً لم يبتغ بذلك بديلا.، وهذه النقطة اتفق عليها كل الأئمة رضى الله عنهم.

ثانياً: إن لم يجد نصاً للحكم لا في القرآن ولا في السنة فيعتمد على فتوى الصحابة إذا اتفقوا على الحكم أو علم فيهم من أفتى بكذا وكذا ولم يعلم مخالفاً لهم، عندئذ يأخذ بفتوى الصحابة رضوان الله عليهم.

الدرس الرابع والعشرون:

الإمام أحمد بن حنبل: الأصول الاجتهادية التي سار عليها الإمام أحمد، فتوى الصحابة - الإمام أحمد، فتوى الصحابة - الإجماع - القياس - الاستصحاب - سد الذرائع.

يَرى الإمام أحمد أن النص هو المرجع الأول، ولكنه يعتبر أن السنة تأتي بالدرجة الثانية من حيث الاعتبار، لأن الذي جعل السنة مرجعاً هو القرآن، فهو الذي يأمرنا بطاعة النبي عليه السلام وأن نأخذ بسنته ﴿مَّن يُطِع ٱلرَّسُولَ فَقَد أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ النساء: ٨٠ ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرِ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ النحل: ٤٤ ولكن عندما يريد استنباط حكم من القرآن لا بد أن يرجع للسنة وماذا تقول في بيان المراد من هذا النص؟ فلا يجوز وإن كانت السنة في الدرجة الثانية أن يُغمض عينيه عنها ولا يلفت لها.

- بعد ذلك عمل — فتوى — الصحابة فالإمام أحمد يرى عند التدقيق أنه مِن العمل بالنص، لأنه لا يرى أن الصحابي يفتي من عنده دون أن تكون فتواه معتمدة إما على نص في القرآن أو في السنة، إذاً فتوى الصحابي جزءاً مِن النّص، والصّحابي لم تكن فتواه بحديث ينسبه إلى رسول الله ... فيقول الإمام أحمد: لعلّه سمعها من رسول الله عليه الصلاة والسلام أو من صحابي آخر سمعها من النبي عليه الصلاة والسلام، أو قد يكون الصّحابي فهم الحكم من القرآن الكريم، ولعل هذا الفهم خفي علينا، إذاً ففتواه منسوبة على كل حال إلى النص.

ذلك إلى جانب الأحاديث التي دلت على وجوب اتباع الصحابة رضوان الله عليهم، ومنها قوله عليه السَّاقِ عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ \). عليه السلام: (عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِي الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ \).

- أما إن اختلف الصحابة يأخذ الإمام أحمد **بالرأي** الذي تسكن إليه نفسه علماً أن كلاهما يستند إلى نص.
- أما المصدر الآخر هو: الإجماع: فالمعروف بالنسبة لكثير ممن كتب عن حياة الإمام أحمد أنه لم يكن يعتد بالإجماع وهذا خطأ كبير هناك فرق بين أن يقول قائل: الإجماع ليس حجة، معاذ الله .. فالإمام أحمد ما قال هذا، وبين أن يقول: من الصعوبة بمكان أن نعثر على حكم يستند إلى الإجماع، هذا الذي ذكره الإمام أحمد رضي الله عنه.

فكان الإمام أحمد عندما ينقل حكماً عن الصحابة أو التابعين يقول: لا أعلم مخالفاً لهذا الحكم ولا يقول: أجمع العلماء على هذا الحكم، ولا يقول: لا يوجد مخالف لهم، وإنما لا أعلم له مخالفاً وهذا من ورعه رضي الله عنه. الإجماع يرفع مستوى دلالة النص إلى القطع.

- فإن لم يجد الإمام أحمد لا في القرآن ولا السنة ولا فتوى الصحابة لجأ عند الضرورة إلى القياس، وهو: أن تجد مسألة لا نص على حكمها، لكن هي تشبه مسألة أخرى نص عليها

٦٥

المسند المستخرج على صحيح مسلم لأبي نعيم، وقد روي بألفاظ قريبة في الترمذي وأبو داوود وغرهما.

القرآن أو السنة، ... فيأخذ بمصادر القياس الفرعية ومِن أظهرها: الاستصحاب، المصالح المرسلة، سد الذرائع، العُرْف، وقد اشتهر بالاستصحاب أكثر من الأئمة الثلاثة.

معنى الاستصحاب: هو ما ثبت في الزمن الماضي، نحكم بأنه ثابت في الزمن الحاضر والمستقبل في مسألة من المسائل، فإذا ثبت واقع أو حكم فإننا نستصحب هذا الواقع ونعده مستمراً إلى الآن ما لم يأتي حكم يقيني يبدله ويغيره. والقاعدة التي تترجمها: اليقين لا يزول بالشك.

مثلاً: الأصل في الأرض الطهارة إن لم تتيقن أن هذه البقعة من الأرض قد أصابحا ما نجسها فنستصحب الحكم السابق للأرض ونقول: كانت طاهرة ومازالت طاهرة وستزال طاهرة .. فاليقين لا يزول بالشك، والشك لا يقوى على نسخ اليقين.

• مررنا على ماء ولم نعلم أطاهر هو أم نجس نعود للأصل وهو أنه طاهر، لأن (اليقين لا يزول بالشك) حتى يأتي شيء يغير هذا الأصل، إذاً يجوز أن نصلي على الأرض وبالحذاء وبالماء الذي لا نعرف أهو طاهر أم لا، هنالك أشياء الأصل فيها هو الحل، وأشياء الأصل فيها الحرمة ونحن نستصحب الأصل.

إذاً شيء من الأصل محظور وحرام يبقى على هذ الأصل في التحريم حتى يثبت العكس بيقين .. الأصل بقاء ماكان على ماكان حتى نتيقن أن هناك موجب لارتفاع هذا التحريم.

أما منهج الإمام أحمد كان مشهوراً بين الناس أنه شديد رغم أنه كان يسير على النحو التالي: إذا عرضت عليه مسألة في العبادات والطهارة تشدد، وإذا أراد الإفتاء في العقود والمعاملات تسامح لأنه يأخذ بالمصالح المرسلة والاستصحاب وسد الذرائع، لذلك من المعروف أننا لا نجد في باب المعاملات أيسر وأبسط من الإمام أحمد خلاف ما هو شائع.

مثلاً فيما يتعلق بالعبادات: المضمضة والاستنشاق عنده واجبان لأن الله أمر بغسل الوجه والأنف والفم جزء من الوجه في الوضوء، وعند غيره سنة.

ومنطلقه القاعدة الفقهية القائلة: (الأصل في الطهارات والعبادات عدم براءة الذمة والتشدد فيها، لأن العبادات حقوق الله سبحانه وتعالى، فينبغي أن تؤدى على درجة عالية مِن العبودية، أما المعاملات فهي قائمة على معاملة الناس).

الدرس الخامس والعشرون:

الإمام أحمد بن حنبل، الأصول الاجتهادية التي سار عليها الإمام أحمد (تتمة)، الاستصحاب – المصالح المرسلة.

من أمثلة الاستصحاب: رجل اصطاد عصفوراً أو غيره، فوقع في بركة ماء وغرق لا ندري أمات بسبب الغرق؟ أم بسبب السهم الذي أصابه؟ فإن افترضنا أنه مات بسبب السهم فهو مزكىً يؤكل، أما إن مات بسبب الغرق فلا يجوز أكله، هنا نعود إلى دليل الاستصحاب الأصل في لحوم الحيوانات هو الحرمة، وتصبح لحومها مباحاً بعارض والعارض: هو التزكية، فإن زكّي هذا الحيوان تحول من الأصل وهو الحرمة إلى حكم الحل والإباحة، إذاً لا يجوز لنا أن نأكل منه لأننا لم نجد دليلاً قاطعاً يرفع هذا الحكم.

المصدر الرابع للإمام أحمد هو المصالح المرسلة: كالتي يقول بما الإمام مالك، لكن الفرق بين الإمام أحمد والإمام مالك، أن الإمام مالك يسمي هذا المصدر باسمه – المصالح المرسلة – بينما الإمام أحمد يأخذ به تماماً لكنه يُدخله في القياس، فالقياس عند الإمام الشافعي والإمام أحمد أوسع من معناه الذي اعتمده الأصوليون أخيراً.

المصالح المرسلة: هي عبارة القول بالفتوى إن كانت تحقق مصلحة من مقاصد الشريعة الخمسة (الدين ثم الحياة ثم العقل ثم النسل ثم المال) وندرأ بما مفسدة، وليس هناك نص أو إجماع وفق هذه المصلحة، نقرر الأخذ بالمصلحة أم لا، والدليل بأن هذه المسألة داخلة في مقصد من مقاصد الشريعة الخمسة، ولكن هذه مخاضة حطيرة ولها أهلها الذين يميزون المصالح.

ودليل الإمام أحمد على هذا هو سير الصحابة فهم يلتمسون المصالح في فتواهم.

ومن أمثلة ذلك:

• جمع القرآن في مصحف بين دفتين: ولم يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بذلك، فتحاور سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما واتفقا على أن جمعه بين دفتين يحقق مصلحة دينية كبيرة والدين أول مقصد من مقاصد الشريعة، إذا هذا الأمر لا بد منه والدليل المصلحة المرسلة.

- الضرائب التي تأخذها الدولة من الناس: بعد عهد الصحابة عندما اتسعت رقعة الدولة أمر الإسلامية والتكاليف المتزايدة للدولة الإسلامية، فأصبح جمع الرسوم التي تحتاجها الدولة أمر ضروري مع أنه ليس عليه دليل لا من القرآن ولا من السنة لا إيجاباً ولا سلباً، وفيه تحقيق لمصلحة الدين في مركز الحاجيات، إذاً هذا العمل جائز وهو من المصالح المرسلة المسكوت عنها وذلك بقيود.
- الصناع: الصانع نوعين صانع مأجور لك فقط كخياطة ثوب أو غير ذلك، في هذه الحالة يده يد أمانه لا يضمن إلا إذا قصر بيقين، والآخر صانع عام يستقبل المواد الخام ثم يصنعها للناس، هذا الصانع العام الذي تكون أمتعة وأمول الناس بين يديه فمصلحة المال اقتضت أن نحكم بضمان الصانع العام، إلا في حال ثبوت بيقين جائحة خارجة عنه أفسدت المتاع كحريق.

والدليل على ذلك المصالح المرسلة.

• يقول الإمام أحمد في جرائم استحدث لم تكن موجودة وليس في عصر النبي عليه السلام مثلها، يرى الإمام أحمد أنه يستحدث لهذه الجرائم عقوبات خاصة بما، ولو وصلت إلى الموت، بدليل المصالح المرسلة وذلك لدفع الضرر عن المقصد الثاني وهو الحياة.

الدرس السادس والعشرون:

الإمام أحمد بن حنبل: سد الذرائع.

نعود الآن إلى الحديث عن سد الذرائع:

المراد بالذرائع: الأسباب، فإن قلت لزيد من الناس: دراستك للشريعة الإسلامية بدقة ستكون ذريعة لصدق التزامك بأوامر الله سبحانه أي أنها ستكون سبباً لذلك.

فكلمة سد الذرائع تعبير عن مصدر فرعى من مصادر الشريعة الإسلامية:

معنى هذا المصدر: أن الشارع حل جلاله إذا كلفنا بأمر فكل ما يتعين سبيلاً إليه فهو أيضاً مأمور ومطلوب، وكل ما نهانا عنه الشارع فكل ما يؤدي إلى ما نهانا الشارع عنه يصبح هذا الشيء أيضاً منهياً عنه، فالوسيلة إلى المحرم حكمها حكم المحرم، والوسيلة إلى الواجبات حكمها حكم الواجب،

والوسيلة إلى المباح حكمها حكم المباح، لذلك سميت دلالة مبدأ سد الذرائع على الحكم دلالة فرعية.

موقف الأئمة من مبدأ سد الذرائع كمصدر تشريعي:

المذاهب الأربعة يأخذون بقدر معين من هذا المبدأ، لكن الإمام مالك وأحمد رضي الله عنهم يبالغون في الأخذ به أكثر من الشافعية والسادة الأحناف رضى الله عنهم.

بعض الأمثلة:

الباري سبحانه وتعالى أمرنا بالتّحابب والتآلف ونهانا عن التباغض، فهاتان المسألتان أحكامهما داخلة في المقاصد الشرعية، ومن الوسائل التي تحقق التحابب: التزاور وإكرام الضيف وغيرها مما يغذي هذا المقصد من مقاصد الشريعة ليس لذاته وإنما لأنه وسيلة للتآلف، ونهانا الشارع سبحانه عن التباغض فكل وسيلة تغذي التباغض منهى عنها لأنها توصل إلى محرم.

ومما يسير التباغض أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، والمساومة على شراء متاع يساوم فيه أخيه سداً للذريعة، والحقيقة أن هذا من الأمور التي ذكرها رسول الله عليه الصلاة والسلام وليس من الضرورة أن يكون الأمر قد نص عليه رسول الله أو جاء في القرآن فالمبدأ هُوَ هُوْ ونحن نسير على هذا المنوال.

النهي عن المنكر واجب والوسيلة هي اللسان، فإذا رأيت منكراً ما وأردت أن تنكر على صاحب المنكر وغلب على ظنك أنك إن فعلت ذلك تسبب عن إنكارك هذا فتنة ومنكر أشد فقد يقتلك، أو أنت مثلاً تقوم بوظيفة هامة جداً مثل هذا العمل مثلاً أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالتعليم وغلب على ظنك أن إنكارك لهذا المنكر سيمنعك من وظيفتك آمرا ناهياً معلماً .. إذا نظر إلى المنكر الذي سيتسبب عن سكوتي أيهما أشد وأحطر.

قطع هذا الدرس على الناس وقطع استمرار النصيحة أخطر من منكر يتعلق بشخص واحد إذاً نسكت عن هذا المنكر ولا ننهى عنه في سبيل أن لا يتسبب عن نهينا منكر أشد وأخطر ... هذا الكلام اجتهاد يعتمد على مبدأ متفق عليه وهو سد الذرائع .. لكن إذا وحدت أن المنكر الذي تريد أن تنكر أخطر من المنكر الذي سيتسبب عن إنكارك فأنكر ذلك ولا بأس.

الدرس السابع والعشرون:

الإمام أحمد بن حنبل: المحنة التي ابتلي بها، سببها، وكم بقيت؟ وكيف عوفي منها فيما بعد؟ وحديث عن صلاة الاستسقاء

عن المحنة التي ابتلي بها الإمام أحمد: ..

بدأت هذه المحنة في عصر المأمون ثم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل وقد كان للمعتزلة صولة في هذه الفترة لا سيما في عصر المأمون والمعتصم وكانت لهم آراءهم الجانحة وكانوا أشداء في النقاش والجدل باعتمادهم على الفلسفة وعلم الكلام . .

وأهم أفكار المعتزلة الجانحة قولهم بأن القرآن مخلوق أي حادث بعد أن لم يكن موجود (معدوم ثم وجد) بإيجاد الله عز وجل له وبخلقه إياه.

ولكن أهل السنة والجماعة يقولون ما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه: أنه كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، وصفات الله عز وجل موجودة مع ذاته، أي موجودة قدم ذاته، وهم المعتزلة - لديهم أيضاً جملة أفكار منحرفة ولها أسباب وفي ذهنهم حجج ينافحون عنها وهذه من المسائل التي تبناها المأمون وأخذ فيها برأي المعتزلة.

فهم يعتقدون أن كلام الله عز وجل ما شطر في اللوح المحفوظ، وأن كلامه سبحانه ما استنطق به الشجر، وما نقرأه من كتابه سبحانه وتعالى فتسمعه الآذان والحروف التي تنضم بعضها إلى بعض فيتكون من ذلك القرآن، كل ذلك مخلوق، فأهل السنة والجماعة لم يخالفونهم في هذا لكن لله سبحانه وتعالى صفة وراء ذلك هي مضمون هذه الكلمات والمعاني التي يخاطبنا الله عز وجل بما، هذه المعاني هي كلام لكنه كلام نفسي معد قبل أن نُخلق ليخاطبنا الله بما وهو موجود في ذاته وهو ليس مخلوقاً وإنما هو صفة من صفات الله تعالى.

المعتزلة يقولون: أن ما نسميه كلاماً نفسياً ليس كلاماً فإن كان من نوع الإعلام كالقصص التي نقرأها في سورة يوسف وسورة نوح مثلاً وغيرها فهو داخل في عالمية الله أي في صفة العلم وإن كانت من قبيل الأوامر والنواهي فهو داخل في صفة الإرادة، والمعتزلة لا يفرقون بين الأمر والإرادة فلا يسمونه كلاماً .. إذاً الخلاف التسمية ..

نحن نقول: علم الله شيء والصفة النفسية التي هي الكلام الذي هيء في ذات الله تعالى ليخاطبنا به شيء آخر، فالإمام أحمد كان شديد الورع ولم يشأ أن يفرق بين لفظٍ ومعنى، أي بين كلام نفسي وكلام لفظي فالورع لديه كان يمنعه أن يقول: أن ما كتب في اللوح المحفوظ مخلوقة، وأما المعاني هي الصفة النفسية القديمة لذلك كان يقول كلام الله قديم.

فالمعتزلة ألهبوا مشاعر المأمون ضد الإمام أحمد رضي الله عنه وكان فيهم – أحمد بن أبي داؤود – من المعتزلة الذين قد لازموا المأمون فطلب منه أن يأتيه بأحمد بن حنبل ليناقشه في هذا .. جيء به وسأله المأمون عن كلام الله تعالى فقال: كلام الله صفته وصفته قديمة قدم ذاته .. فعارضه المأمون، ثم سأله عن معنى كلام الله واللوح المحفوظ فلم يشأ الإمام أحمد أن يفرق بين لفظ ومعنى وبقي على كلامه، بدأت محنته من هنا وطلب منه أن يفصل فرفض ذلك حتى لا يكون في كلامه إشكالاً عند فهم الناس له فالصحابة لم يفرقوا ولم يدخلوا في هذه التفاصيل، ولما توفي المأمون أوصى أخاه المعتصم بإلزام الإمام أحمد في أن يقول كلام الله مخلوق، وفعلاً حبس الإمام أحمد من أجل هذا واشتدت المحنة به وصبر صبراً كثيراً ..

الدرس الثامن والعشرون:

لماذا تمركزت المحنة في حق سيدنا الإمام أحمد بالذات وعدد من أمثاله؟ مذاهب أخرى كالمذاهب الأربعة، هل يجوز لنا أن نتبع واحداً من هؤلاء الأئمة الذين لم تدون مذاهبهم ولم تصل إلينا مذاهبهم تماماً؟....

هناك مذاهب لم يُكتب لها الانتشار والرواج، والسبب أن هذه المذاهب لم يوجد لأصحابها تلامذة يدونون مذاهبهم كما وجد للأثمة من أصحاب دونوا مذاهبهم ..

المذاهب البائدة: ظهرت وانتشرت ولكن المذاهب الأربعة طفت عليها:

ومن هذه الذاهب ..

• مذهب عبد الرحمن بن محمد الأوزاعي: نسبة إلى الأوزاع وهي بطن من بطون اليمن لكنه ولد في بعلبك ٨٨ ه وكان أهل الشام — لبنان – يسيرون وراء اجتهاداته، أخذ الحديث ومهر به وخطته التقريب بين المذهبين مثل الأئمة، انتشر مذهبه في الشام والقضاة في الشام يفتون به، وانتشر

مذهبه في الأندلس من بقايا الأمويين، ولكن ذاب مذهبه في الشام أمام مذهب الشافعي وفي الأندلس أمام مذهب مالك لقلة الأصحاب الذين خدموا هذا المذهب.

• مذهب داوود الظاهري: ولد عام ٢٠٢ للهجرة في الكوفة وكان شديد الحب للإمام الشافعي ومذهبه، لكن اختلف معه في بعض الأمور، سمي ظاهرياً لأنه كان يأخذ بظواهر النصوص إلا ما أجمع العلماء على تأويله، ويرفض القياس رفضاً باتاً ومن هنا كان له سيراً خاصاً.

أحدهم ظهر وانتشر كتلميذ له وهو الإمام ابن حزم الأندلسي دون مذهب الإمام داوود الظاهري في كتاب له وهو معروف.

وهناك مذاهب أخرى مثل مذهب ابن أبي ليلى وسفيان الثوري لكن لم تدون مذاهبهم.

هل يجوز لنا أن نتبع واحداً من هؤلاء الأئمة الذين لم تدون مذاهبهم ولم تصل إلينا تماماً..؟

الجواب: هؤلاء الأثمة ليسوا أقل شأناً من الأئمة الأربعة ولكن كثيرون من العلماء الذين تحفظوا في ما يتعلق باتباعهم لأننا في شك من أن هذا الرأي، هل صحيح أن الإمام الأوزاعي ذهب إليه أم لا؟ فإن نقل إليك ما نسب إليه وخالف في رأيه الأئمة الأربعة ، إن تأكدت أن هذا الرأي الذي نسب إليه أنه هو قائله لا شك فلا بأس فيه لأن الإمام الأوزاعي أحد الأئمة، ولكن إن كنا في شك من هذا؟ فهذا غير حائز، إذاً لا شك في أنه لا حرج في الاقتداء بهم ولكن لا بدّ من التثبت في قائل الفتوى.

ما حكم تقليد المسلم للمذاهب الأربعة؟ وهل المسلم واجبُهُ أن يأخذ من القرآن مباشرة ومن سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام أياً كان أم الأمر فيه تفصيل؟..

باختصار نقول: بل إن الواجب الأساسي الذي يخاطب الله عز وجل عباده به هو أن نأخذ شريعة الله عز وجل من كلامه – القرآن – الوحي الذي تنزل على رسول الله والمالة والمحالة والمحالة المسلم فهو القرآن وإن كان وحياً غير متلو فهو الحديث، هذا هو الأصل، ثم إذا كان هذا الإنسان المسلم لم يتأت له أن يتعلم كتاب الله عز وجل ولم يتأت له أن يعلم منهج استنباط الأحكام من النصوص لقرآن والسنة – ففي هذه الحالة يصدق عليه كلام الله عز وجل: ﴿فَمَعَالُواْ أَهْلَ ٱلذِّكُمِ إِن كُنتُمْ

لَاتَعَكَّمُونَ ﴾ النحل: ٤٣ ، إذا قولاً واحداً القرآن والسنة. لكن زيدٌ من الناس مثلا يعمل بالفلاحة ولا يتفرغ لدراسة الشريعة نحائياً وقد لا يتقن حتى تلاوة القرآن، فكيف يمكن أن نقول له يجب أن تأخذ شريعة الله مباشرة من القرآن أو السنة؟ .. هذا مستحيل طبعاً.

وهناك وظائف كثيرة كلها تحول دون أن يتفرغ هذا الإنسان لمعرفة كيفية استحراج الأحكام من نصوص القرآن أو السنة، ففي هذه الحالة يجب على كل منهم أن يتبع إماماً من الأئمة الذين أجمعت الأمة على أنه يوثق باجتهادهم.

هناك أربعة مذاهب مدونة وصلت إلينا بيقين .. والسؤال هل من فرق بين مذهب وآخر ..؟ فإن سألك أحدهم أي المذاهب أتبع، تقول له كما قال الإمام البوصيري:

وكلهم من رسول الله ملتمس *** رشفاً من البحر أو نقلاً من الديم نقول: أنك مثاب إن أخذت منهم.

- إن اتبعت أحد هؤلاء الأئمة وعزمت أن أتبع كل ما اجتهد فيه، هل يجب عليّ أن أتباعه طوال حياتي، أم يجوز لي أن أنتقل منه إلى تقليد غيره وبعد حين أنتقل منه إلى تقليد ثالث؟..

نقول له: بل يجوز لك هذا، فإن اتبعت إماماً من الأئمة وطاب لك أن تتبعه في اجتهاداته ليس في القرآن أو في السنة ما يلزمك به، فهم كلهم من أهل الذِّكر الذين قال عنهم الباري سبحانه في كتابه.

وأحد الصحابة مثلاً يطيب له أن يسأل ابن عباس رضي الله عنه، وبعد حين يطيب له أن يتبع زيد بن ثابت رضى الله عنه أو غيره.

لكن ممن يخالفون هذا الكلام هم أصحاب عصبية المذاهب، مثلاً رجل مِن أتباع الإمام أبي حنيفة يرى أنه ينبغي أن يُحشر وهو يقول لله عز وجل: أنا كنت من أتباع أبي حنيفة رضي الله عنه ولم أتغير أو أتحول، لا هذا الأمر يخالف الشرع.

- قال أنا لن أغير مذهبي وأنا شافعي المذهب، لكنني وقعت في مأزق وهذا المأزق اضطرين أن أقلد الإمام أبي حنيفة في هذه المسألة فقط، وبعد مدة وقعت في مأزق ثان، اضطري أن أقلد الإمام مالك رضى الله عنهم، علماً أن مرتكزي هو شافعي...؟

نقول له: يجوز ذلك شرط أن تكون عالماً بمذهب الإمام أبي حنيفة في هذه المسألة ومذهب الإمام مالك في المسألة التي قلّدت فيها مذهبه، لكن هذا بشرط أن لا تقلد أكثر من إمام بمسألة واحدة. مثلاً: صلى صلاة وفيها ذاتما قلّد في بعض منها مذهب إمام من الأئمة وفي بعضها الآخر قلد إمام ثاني، بحيث تكونت من هذه الصلاة أو العبادة حالة لا يقول فيها لا الإمام الشافعي ولا الإمام أحمد ولا غيره فهذا اسمه تلفيق.

مثال ثاني: حرج دم مِن يده وهو حنفي فأراد اتباع مذهب الإمام الشافعي، لأن حروج الدم عنده لا ينقض الوضوء، ثم قبل الصلاة لمست يده يد امرأة أجنبية، قال: أنا الآن سأتبع الإمام أبي حنيفة ثم قام فصلى هذه الصلاة الواحدة .. وخالف في ذلك الإمام الشافعي والإمام أبي حنيفة، فقد اجتمعا سببان لنقض الوضوء عند كل منهما، مختلفان، إذاً هذه الصلاة لا في مذهب الإمام الشافعي صحّت ولا في مذهب الإمام أبي حنيفة صحّت. فهذا غير جائز لأنك في صلاتك هذا لم تتبع لا الإمام الشافعي ولا الإمام الحنفي.

مثال على حالة المُلفّق: رجل مريض — نسأل الله العفو والعافية — ذهب إلى طبيب ففحصة وأعطاه الدواء اللازم، ثم ذهب إلى طبيب آخر ففحصة وأعطاه دواء آخر، فخلط هذا الدواء مع الدواء الأول، وأخذ يستعمل الدواءين ممزوجين ببعضهما، فلم يتبع هذا المريض لا الطبيب الأول ولا الطبيب الثاني، هذا التلفيق كشأن اتباع مذاهب مختلفة في أمر واحد كالصلاة مثلاً.

الدرس التاسع والعشرون:

متى بدأت المذاهب والاختلافات الفقهية؟ هل هنالك آفات لحقت المذاهب الأربعة التي تحدثنا عنها والمذاهب الفقهية عموماً؟ الإباضية - الشيعة.

متى بدأت المذاهب والاختلافات الفقهية؟:

- المذاهب الفقهية ضرورة لا مفر منها، ووجودها لا يتعارض مع ما أمر سبحانه وتعالى به المؤمنين من التّضامن والاتحاد، لأننا عرفنا أن تعدد المذاهب الفقهية ليس مبعثاً لشقاق أو لخصام بل وجودها عاملٌ هام جدا للتعاون والاتحاد والتّضامن، على النقيض مما قد يتصور البعض لأننا رأينا أن هذه المذاهب ليست متخاصمة وإنما متكاملة.

لأن كل مذهب سكنت نفسه إلى الاجتهاد الذي أخذ به، ولكنه ليس على يقين تام من أن رأيه هو الحق ومن ثم فهو يفترض أن إمام مذهب آخر هو صاحب الحق وعندما تتكاثر الاجتهادات وتتنوع يكون ذلك مجالاً واسعاً لتحرك الأمة على صراط الله سبحانه وتعالى ضمن اتفاق وتضامن واتحاد، وشاء الله عز وجل بأن تكون هناك نصوص غير واضحة وغير جلية جلاءً تاماً في دلالتها على المعاني المراد منها، فكل إمام يفسرها على النحو الذي تراءى له والمنهج يقبل الخلاف فيصبح السير وراء هذا الإمام وغيره تمسكاً بأوامر الله تعالى ..

- إن وجود المذاهب الفقهية والخلافات الفقهية بدأت في عصر رسول الله والمنظونية، وكان موقفه عليه السلام من الاختلافات الاجتهادية في بعض الأحكام التأييد بل تشجيع هذا الاجتهاد، قد يبرر رأياً ويخطاً رأياً آخر لكنه لم يمنع الاجتهاد ويوضح الرأي الأصوب، ولعلكم تذكرون قوله عليه الصلاة والسلام بعد رجوعه من غزوة الخندق: (لا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعُصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةًا) .. واحتلاف اجتهادات الصحابة وفهمهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام .. وقد ذكرت هذه القصة في الدرس الرابع من هذه الدروس ..

ورد في الصحيح أن رجلا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ، فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَال: (زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلَا تَعُدْ)، فلم ينكر عليه

ا رواه البخاري

رواه البخاري

اجتهاده ولكن قصد في كلامه أن إذا كنت في المسجد امشي الهويني ... فالنبي عليه السلام لم يعنف المجتهدين من أصحابه بشكل من الأشكال ..

ومن ذلك عمار بن ياسركان في سرية وقد أجنب واحتاج أن يرفع الجنابة ولا يوجد ماء فتمعك في التراب ولما وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام لم يعنّفه بل أوضح له أنه إنماكان يكفيه التيمم.

الغريب أننا لا نجد من نقول في عصر رسول الله والمسلم المناهب ربما قال من ينكرون المذاهب هذا الكلام وقد كان في عصر الصحابة بعد وفاة رسول الله عليه السلام مذاهب كثيرة كمذهب ابن عباس وزيد وغيرهم رضوان الله عليهم لكن لم نسمع من قال ذلك، وربما قال من ينكرون المذاهب: أن المذاهب لم تكن في عصر الصحابة وإنما بعد هذا العصر والسبب في ذلك أن صاحب المذهب من الصحابة لم يدون مذهبه فلو جمع ابن عباس آراءه الاجتهادية في كتاب لقلنا أن هذا مذهب عبد الله بن عمر جمع الاجتهادات التي انفرد بما عن ابن عباس لقيل عن هذه الأوراق أنما تحوي مذهب ابن عمر رضي الله عنه .. أما الأئمة الأربعة فقد دونت مذاهبهم ..

إذن نشأة المذاهب الفقهية كان خير دعامة لترابط المسلمين وتعاوضم بل للوحدة الإسلامية لأن هذا الاتساع جعل الناس مهما تحركوا يتحركون تحت مظلة الوحدة الإسلامية ..

هل هناك آفات – عيوب – لحقت بالمذاهب الأربعة التي تحدثنا عنها..؟

نعم ومن أهمها وأخطرها أن هنالك مذاهب - ونسميها بالفرق حتى نفرق بين المذاهب الاعتقادية والمذاهب الفقهية - اعتقادية، والمذاهب الفقهية مذاهب، ومن أخطر هذه الآفات أن بعض أصحاب الفرق الاعتقادية دفعتها العصبية إلى تسليط قدر كبير من آثار أفكارهم الاعتقادية بل السياسية آناً على المذاهب الفقهية وآرائهم الاعتقادية سلطوها على أفكارهم الفقهية.

بعبارة أخرى اختلفوا عن جمهرة المسلمين ببعض المعتقدات لكن بما يتعلق بالآراء الفقهية لم يكن لهم موقف خاص لكن ساقتهم العصبية إلى أن يجعلوا بدون موجب فقهاً خاصاً بهم ..

أمثلة ذلك: الخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي انقسموا إلى عدة أقسام منهم من تابوا ورجعوا، ومنهم من رفعوا السلاح في وجه المسلمين وسيدنا علي، قتلوا وقتل أكثرهم، وبقيت فئة منهم أقل هذه الفرق جنوحاً وهي التي تسمى الإباضية فهم ليسوا بشراسة الخوارج وهم معروفون بورعهم

واستقامتهم، لهم رأيهم الاعتقادي تحد أن هنالك مذهب اسمه المذهب الإباضي في الفقه والحج وغير ذلك .. ولو رجعنا إلى كتبهم لرأينا أن آرائهم لا تخرج عن آراء المذاهب الأربعة فهذه عصبية نحن ننكرها ومن ينكرون المذاهب يتوكؤون على هذا الأمر وهذه آفة من الآفات.

ما يتعلق بفقه الشيعة أعتقد أن كله ينقلونه ويروونه من آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام عن محمد الباقر وابنه جعفر الصادق، وحين نعود إلى فقهم نجد أن فقههم ليس شيئاً آخر من فقه المذاهب الأربعة وقد جلس الإمام أبى حنيفة إلى جعفر الصادق وأخذ عنه ..

وننظر فنجد أنهم رسموا لأنفسهم فقهاً خاصاً بمم، لماذا هذا المذهب الخاص في حين أنكم إنما اختلفتم عن أهل السنة والجماعة في مسائل العقيدة والخلافة ..؟

الجواب: هو أن الشيعة فيما بعد اشترطوا في الرواية عن النبي عليه السلام شروطاً لم يشترطها أحد من آل البيت، وهي: أن لا يروى الحديث ولا تفسير لكلام الله إلا من معصوم، واشترطوا أن لا تقبل رواية إلا من آل بيت النبوة، هذا الاشتراط هو الذي كون فقها خاصاً بحم فيما يتعلق بعلم الرواية والجرح والتعديل. لم يكن لا محمد الباقر ولا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم يشترطون في أخذهم للرواية كهذه الشروط.

إذاً في عصر هؤلاء الأئمة الذين نجلهم إحلالاً كبيراً ننظر فنجد أنه لم يكن يوجد مذهب فقهي خاص لمن يسمون بالشيعة أبداً وما أكثر ما روى الأئمة الأربعة من آل بيت رسول الله وآل بيت رسول الله والله والله

الدرس الثلاثون:

الدور الخامس من أدوار التشريع الإسلامي، والحديث عن موضوع يهم الأسرة الإنسانية جمعاء الدور الخامس من أدوار التشريع الإسلامي: وهو عصر توقفت فيه نشأت مذاهب جديدة، وفيه انتشار التقيُّد والتقليد للمذاهب المعتبرة في الدور الرابع للأفراد والدول، ووجود علماء مجتهدين في كل مذهب منها ومقارنين بينها مدته الزمنية:

بدأ الدور الخامس من منتصف القرن الرابع حوالي سنة ٣٥٠ هـ، إلى سقوط الدّولة العباسية في بغداد عام ٢٥٦ هـ، أي لمدة ٣ قرون.

خصائص الدور الخامس:

أول ما يمتاز به هذا الدور: هو توقف ظهور مذاهب جديدة فيما يتعلق بالشريعة الإسلامية: لاحظنا ظهور المذاهب في الدور الرابع لاسيما المذاهب الأربعة التي درسناها واحدة تلو أخرى، ومذاهب أحرى لم تدون ولم تصل إلينا مفصلة لكن هنا ننظر ونتأمل فلا نجد ظهوراً لمذاهب جديدة.

الأمر الثاني: نجد أن التقليد قد انتشر في المجتمعات الإسلامية: ونعني بالتقليد: أي اتباع المسلمين على اختلاف درجاهم العلمية لأئمة المذاهب السابقين، ومن الطبيعي عندما لا تنشأ مذاهب حديدة سنجد الصورة التالية: المسلمون العلماء وغير العلماء يسيرون على نهج أئمة المذاهب السابقين.

ثالثا: تدوين وشروح للمذاهب السابقة: ونحد أيضاً أن علماء المسلمين في هذا العصر اتجهوا إلى تدوين المذاهب وإلى التعليق عليها وإلى شروح المؤلفات التي كتبت في القرن الرابع وإلى كتابة ما يسمى بالحواشي والهوامش،....

رابعاً: أيضاً نجد أن هنالك من أفتى بإغلاق باب الاجتهاد وهذا أبرز خصائص الدور الخامس.

وعدم ظهور مذاهب جديدة في نهاية الدور الرابع لا علاقة له لا بتخلف ولا بتقدم، المسألة هي أن أئمة المذاهب الأربعة كما عرفنا أنهم وضعوا مناهج لاجتهاداتهم فدونوا علم قواعد تفسير النصوص وهو ما يسمى بأصول الفقه، أي دونوا القواعد التي تُعتمد في تفسير النصوص كالأمر يدل على الوجوب، النهي يدل على الحرمة، اللفظ العام يدل على معناه دلالة قطعية، ورأي آخر يقول بأنه يدل على معناه دلالة ظنية، المطلق إذا أطلق حمل على الفرد الكامل -، وسار أئمة المذاهب في الاجتهادات الجزئية وفي تدوين الأحكام الفقهية على ضوء هذه القواعد، فالمساحة التي يمكن أن يتحرك فيها المجتهد سُدّت بكاملها في نهاية الدور الرابع، إذاً العلماء الذين حاؤوا في الدور الخامس كيف يبدعون مذاهب جديدة، الإمام الغزالي إن سئل على أمر ورأى أنه يدل على وحوب فهناك من سبقه بالحكم عليه مِن الأئمة، وإن كان الأمر يدل على الندب أيضاً جاء قبله وض سبقه بذلك وغير ذلك، إذاً هو تابعاً وليس متبوعاً.

لذلك فإن الإخوة الذين يصفون القرن الخامس والسادس الهجريين بالتخلف هم أناس سطحيون وهذا إن أحسنا الظن بحم، وأنا أضرب مثالاً: قواعد اللغة العربية في صدر الإسلام دونما علماء عرب في صدر الإسلام أمثال أبو الأسود الدؤلي وغيره حين نظروا إلى ألسنة العرب كيف أنهم يرفعون الفاعل دائماً وينصبون المفعول وينصبون الحال و..و.. ثم دونوا كلما لا حظوا قاعدة ثابتة في كلام العرب.

فالعلماء الذين جاؤوا من بعدهم لن يستطيعوا تغيير أو تبديل قواعد اللغة العربية، لماذا لا يطلب منهم كالذي يطلب مِن علماء الشريعة في القرن الخامس والسادس...؟؟

هذه ضوابط لا نستطيع أن نتجاوزها وحقيقة لا بد أن نعلمها ..

نتكلم عن جريمة حصلت، ونخاطب بذلك الأسرة الإنسانية جمعاء وهي:

قضية الاعتداء على كنيسة:

الأديان بريئة من الجرائم التي تستبشعها الإنسانية بفطرتها، ولكن الصهيونية العالمية هي التي خططت لذلك الإجرام، ومن ورائها إسرائيل ومن ورائها أمريكا. وما يسمى بالقاعدة وأمثالها مما يسمى بالجماعات الإسلامية والتكفيريون، إن لم ينكر هؤلاء مثل هذه الجريمة الشنعاء فهم موافقون عليهم،

عملاء لإسرائيل، وهم متطرفون غالون وهذه التسمية أصح من تسمية إرهابيين، لأن القرآن وصفهم بالغالون.

وأكثر ما يقصد من يكون وراء هذه الجرائم هو الوقوف وعرقلة التقارب من خلال التحاور واللقاءات بين النصارى والمسلمين. والهدف من هذا التقارب: هو نزع فتيل الفتنة بين المجتمعات الإنسانية.

أسباب الصلاح والحفاظ على الأسرة الإنسانية:

- ١. التضرع والدعاء لله لأجل هذه الأسرة.
- ٢. العودة إلى مبادئ الأديان السماوية، وكيف أنما تحث على احترام الجار واحترام الإنسان لإنسانيته قبل أي شيء آخر.
 - ٣. الوعى المتسامى عن الفوارق الدينية هو حصن هام لهذه الأسرة الإنسانية.
- ٤. أهم حصن قبل ذلك كله هو: صدق التعامل مع الله، فإنه سبب لصلاح القلوب ثم صلاح جميع الأمور، والذي أشعرني بالألم لهذا الحدّث هو إسلامي، ولو كنت من أهل الحداثة ربما لم أتأثر بما حصل.

الدرس الواحد والثلاثون:

مزايا الدور الخامس من أدوار التشريع الإسلامي، والفرق بين قواعد تفسير النصوص وبين القواعد الفقهية

علماء الدور الخامس ومرتبتهم العلمية:

الأئمة الفقهاء العظام أمثال الغزالي والعز بن عبد السلام والإمام السرخسي وابن دقيق العيد والإمام النووي هؤلاء كانوا مجتهدين ولكن يسمون مجتهدين في المذهب أي أنه يستنبط الأحكام من النصوص وعن طريق القياس وغيره، لكن عندما يستنبط يعتمد على القواعد التي وضعوها الأئمة الأربعة قبله، إذا اجتهاده ضمن حدود المنهج — قواعد تفسير النصوص – الذي رسمه الأئمة قبله.

ومن أبرزها مزايا - خصائص - الدور الخامس:

أولا: تعليل الأحكام:

مثلاً: الإمام الغزالي يجد أن الإمام الشافعي بين في كتابه الأم أن البنت التي جاءت سفاحاً من - جاني – ارتكب الزبي بامرأة حملت منه وأنجبت بنتاً – يقول: هذه البنت لا تنطبق عليها أحكام البنوة بالميراث، فلا ترث منه ولا يرث منها، وعدم حرمة الزواج منها لأنها ليست ابنته، جاء الفقهاء من بعده وفسروا هذا بقولهم: لأن معنى البنت في القرآن يفسر بالحقيقة الشرعية وليس بالحقيقة اللغوية، أما المعنى اللغوي فهي أنها بنتاً من مائه، أما شرعاً: يجب أن تكون من مائه وبنكاح شرعي، حين بين لنا الباري سبحانه وتعالى في سورة النساء ميراث البنت بينها بالحقيقة الشرعية وليس باللغوية إذاً بنت الزبي لا ترث ولا تحرم عليه. إذاً "البنت التي جاءت من سفاح لا تنتمي بالبنوة إلى استولدها شرعاً".

المزية الثانية لمذا الدور: أن هؤلاء الفقماء أخذوا يرجحون قولاً على قول فظمر اجتمادهم:

فمثلاً روي عن الإمام الشافعي قولان بمصر، كان له قول قبلها، وكذلك الأئمة الآخرون، فكان فقهاء الدور الخامس ينقلون آراء الأئمة، ومن ثم يقفون موقف القاضي ويرجحون بين الآراء، فكان كثيراً ما يخالف أحد السادة الأحناف إمامه أبي حنيفة ويرجح قول الإمام الشافعي في مسألة ما وكذلك قد يفعل غيره من الأئمة.

ومن هنا وجد في هذا الدور ما يسمى الفقه المقارف: أي ندرس مذهب الإمام الشافعي فيما يتعلق مثلاً بمسائل البيع ونقارنها بمسائل الإمام أبي حنيفة وأيهما أصح، وهنا يأتي دور الترجيح، ففقهاء هذا المذهب يرجحون رأي الإمام أبي حنيفة مثلاً لأن الإمام الشافعي كان قد استشهد بحديث ضعيف ولم يعرف ضعفه إلا بعد حين — بعد وفاة الإمام الشافعي - .

مثال: الوقف للأراضي مثلاً الإمام أبو حنيفة يقول: أن الواقف له أن يعود متى شاء في وقفه، وخالفه في ذلك الإمام الشافعي .. ويقول الإمام أبي حنيفة: إلا إن سجل هذا الوقف في وثائق الدولة فلا يستطيع أن يعود فيها، ثم جاء فقهاء الأحناف الدور الخامس ورجحوا رأي الإمام الشافعي في الوقف.

المزية الثالثة: شرح المؤلفات الأئمة السابقين:

أي ظهور شروح وحواشي للمؤلفات، مثلاً كتاب المنهاج للإمام النووي الذي ألفه مختصراً وحد له شرح للإمام ابن حجر في كتابٍ له اسمه تحفة الفقه من عشر مجلدات، وآخر شرحه شرحاً آخر اسمه "مغني المحتاج" للإمام الشربيني، الإمام النووي شرح كتاباً اسمه" المهذب" للشيرازي بتسع مجلدات وتوفي وكان قد وصل لأول باب البيوع ولو أتمه لوصل إلى ثلاثين مجلداً.

وهناكمزية أخرى: تدوين ما يسمى بقواعد الفقه:

وهي لم تكن معروفة ولا موجودة بالدور الرابع ولا الذي قبله نحائياً، معنى القواعد الفقهية: القاعدة الفقهية: هي عبارة عن حكم كلي يعبَّر عنه بكلمة جامعة تندرج تحته مئات الجزئيات من الأحكام الفقهية، وكثير مِن العلماء شرحها وأطال بشرحها.

مثلا منها: قاعدة (المشقة تجلب التيسير، اليقين لا يزول بالشك، الأمور بمقاصدها، العادة محكمة، الضرر يُزال)

المشقة تجلب التيسير: قاعدة جمعها الفقهاء إما من القرآن الكريم أو من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ثم من جزئيات الأحكام تدل على أن الله تعالى يريد بالناس اليسر وهو القائل: في يُرِيدُ الله يُرِيدُ الله على المسافر المفافر المفافر ويرخص له الجمع بين الصلاتين والتيمم وهذا فيه تيسيراً ...

ومثلاً قاعدة: العادة محكمة: حين وجد الفقهاء بكل أبواب الفقه الشيء الذي لا نص عليه نرجع فيه إلى العرف، مثلاً البيع إن تم لا يصبح المتاع من ضمانك إلا في حال القبض والقبض يفسره العرف ويحدد كيفية القبض كأن يقبض البيت بتسليم مفتاح البيت، أما الآن أصبح العرف بتسجيله رسمياً.

قاعدة: الضرر يُزال: فأنى يكون ضرراً الشارع يضع حكماً لإزالته وهذا أتى من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام: (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ ')، أي لا يجوز أن تبدأ أخاك بضرر ولا يجوز لأحيك أن يقابل ضرراً بضرر ..

۸۲

ا رواه ابن ماجه.

قاعدة: اليقين لا يزول بالشك: أحدكم توضأ وخرج من بيته متوضاً، ثم شكّ هل لا زلت متوضئاً أم لا؟ فصار يقيناً سابقاً وشكاً لاحقاً والذي يغلب الآخر هو اليقين السابق فهو الأقوى، خرجت مِن بيتك ولم تكن متوضئاً ثم شككت هل توضأت ام لا بعد خروجك؟ هنا نقول: أن الأقوى عدم الوضوء.

قاعدة: الأمور بمقاصدها: أي تلون تصرفاتك حسب القصد الذي بقلبك، لون القصد يطفح على لون الفعل، أخذ الفقهاء هذه القاعدة من كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِيَّاتِ) ثم من جزئيات الأحكام الكثيرة التي تبين أن النية هي التي تتحكم في الصحة والبطلان والثواب والعقاب ..

إذاً ينبغي أن نعلم أن فقهاء هذا الدور لم يكونوا أقل قدرة على الاجتهاد بل يمتازون بقدرة فائقة إلا أن ظروفهم اقتضتهم أن يتحركوا ضمن مساحة ضيّقة.

بقي سؤالاً: ما الفرق بين قواعد تفسير النصوص وبين القواعد

الفقمية..؟

قواعد تفسير النصوص: مفاتيح لفهم الأحكام من نصوص الكتاب والسنة، فإن جاء النص لفظه عام نفهم العموم من خلال هذه القواعد مثل: اللفظ العام يجري على عمومه، الأمر المطلق يجري على إطلاقه، الأمر للوجوب ... إذاً هي مفاتيح تستعمل قبل معرفة الأحكام وعلى عكسها قواعد الفقه هي: قواعد تصوغها بعد تكامل الأحكام الفقهية تعيد النظر فيها فتستنبط مما قد فهمت قواعد كليّة. فقواعد تفسير النصوص تكون قبل الاجتهاد في فهم الأحكام، أما قواعد الفقه تكون بعد تدوين الأحكام.

ا رواه البخاري.

الدرس الثاني والثلاثون:

تتمة مزايا الدور الخامس من أدوار التشريع الإسلامي

تتمة ما الفرق بين قواعد تفسير النصوص والقواعد الفقهية...؟:

قواعد تفسير النصوص: عملها يكون قبل اكتشاف الأحكام، لأنها مفتاح لمعرفة الأحكام واستنباطها من النصوص، إذاً هذه القواعد وهي أصول الفقه يكون دورها قبل الاجتهاد.

أما القواعد الفقهية: يأتي دورها بعدما نجتهد في معرفة الأحكام الجزئية، ونجد أنفسنا أمام جزئيات كثيرة من الأحكام هنا نستعرضها جميعاً ثم نستنبط منها القواعد ... كقاعدة: المشقة تجلب التيسير ..

وكقاعدة: الأمور بمقاصدها ... إذاً هذه النظريات الفقهية تُكتشف بعد الاجتهاد وجمع كل الأحكام الفقهية ..

ومن مؤلفات القواعد الفقهية كتاب اسمه: الأشباه والنظائر ..

من مظاهر هذا الدور ايضاً: استقلال الناس باتباع المذاهب الأربعة:

فكل بلدة تستقل بمذهب تقريباً فالأئمة السابقين لم يتبعوا مذهباً معيناً كل منهم يجتهد بنفسه، كما أن المسلمين في الدور الخامس توازعتهم المذاهب الأربعة أيضاً، في القرن الثاني والثالث أصبح الناس أصحاب مذاهب ففي الدور الرابع كان هناك أناساً يتبعون الإمام أبي حنيفة وهناك من اتبع الإمام مالك كما في شمال افريقيا مثلاً، فليس صحيحاً أن الناس تقيدوا بالمذاهب في الدور الخامس وأنهم لم يكونوا متقيدين في المذاهب أبداً ..

الإمام أبو الحسن الأشعري:

كان في الدور الثالث وكان شافعياً وكان الذين أعجبوا باجتهاده في العقيدة هم أتباع المذاهب الأربعة كلهم أحدقوا به واتبعوه.

فالمذاهب كانت حتى في عصر الصحابة فمنهم من كان يتبع ابن عباس رضي الله عنه، ومنهم من كان يتبع زيد بن ثابت، فإذاً الناس منذ عصر الصحابة كانوا أقسام: علماء وأنصاف علماء وجهّال

.. فَمَن دُونَ العلماء المُحتهدُون متبعون، ومن دُونِهُم مَن يطبق قوله تعالى: ﴿ فَسَعَلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنْتُمۡ لَاتَعَاۡمُونَ ﴾ النحل: ٢٣

من خصائص الدور الخامس: أن هناك مذاهب أخرى غير المذاهب الأربعة غابت في الدور الخامس فلم يعد الناس يعلمون مصيرها:

كمذهب ابن أبي ليلى، وسفيان الثوري، والإمام الأوزاعي، والحسن البصري، وكانوا هؤلاء من الأئمة المجتهدين في الدور الرابع ولكن في الدور الخامس لم يجد الناس مراجع لمذهبهم وتدوين لها فكان هذا سبباً في اندثارها. على خلاف المذاهب الأربعة فقد دونت مذاهبهم وأفكارهم.

إذا من هنا قال العلماء: أن الرجل العامي الذي لا يتاح له استنباط الأحكام مِن مصادرها لا بد أن يتبع عالماً من العلماء، فقالوا أنه لا بد أن يتبع مذهباً من المذاهب الأربعة المدونة، لأنه لا يستطيع أن يلتزم بمذهب لم يدوّن ولم يصل إليه.

ومن خصائص هذا الدور أيضاً أن الفتوى والقضاء أصبح مختصاً في مذهب من المذاهب:

فيما مضى لم يكن المفتي مختصاً بمذهب ما، بل كان مجتهداً في الفتوى، ففي الدور الخامس إن كان المفتي قد بلغ درجة الاجتهاد التي وصل إليها الإمام النووي والغزالي يفتي فيما يرى هو، لكن في كثير من الأحيان لم يبلغ هذه الدرجة ولاسيما في الدور التاسع والعاشر، فكان هذا المفتي متقيداً بمذهب من المذاهب الأربعة، وفي بعض الأحيان يكون المفتي مجتهد لكن الناس مِن أتباع المذاهب، فينبغي أن يكون لكل منهم مفتي على مذهبهم، فينبغي للسائل أن يعلم فتوى ما يسأل عنه على مذهبه هو.

كذلك القضاء في الدور الخامس، وحد القاضي الذي يقضي بمذهب الإمام مالك ووحد القاضي الذي يقضى بمذهب الشافعية مثلاً وغيره.

ومن خصائص هذا الدور أن الدولة أيضاً أصبحت تتبنى واحداً من هذه المذاهب:

ففي الدور الخامس ظهرت الخلافة العثمانية وهم أتراك، وكانوا كلهم ملتزمين بمذهب أبي حنيفة، فالقاضي والمفتي كانوا من أتباع أبي حنيفة والسبب في ذلك أن الدولة كانت تتبنى مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه.

من أمثلة علماء الدور الخامس:

كالإمام الشاشي، والعز بن عبد السلام، وكمال بن الهمام، والإمام السرخسي، والإمام القرافي، من عيون المالكية، وابن تيمية مجتهد، وهو في الوقت ذاته حنبلي المذهب .. أريد أن أقول: أن هذا العصر كان عصر اجتهاد لكن الساحة التي كانوا يتحركون بما شغلها العلماء الذين جاؤوا من قبلهم.

ومن خصائص هذا العصر ومن مزايا الخلافة العثمانية: ظمور مجلة الأحكام العدلية في أثناء الخلافة العثمانية ومجلة أحكام العائلة:

في الدور الخامس وجدت لجنة مِن كبار الفقهاء، قننوا كل المسائل الفقهية التي تتعلق بالمعاملات المالية – القانون المدني – مثلا قننت بصيغة مواد فقهية بحيث يسهل على القاضي والمفتي والمحامي أن يعود إلى هذه المراجع فيثبته، وهذا يعد من أكبر المزايا التي تُحفظ للخلافة العثمانية فكان مرجعهم الشريعة الإسلامية.

كذلك مجلة أحكام العائلة - الأحكام الشخصية - قننت في هذا العصر، لو لم نجد مزية في الدور الخامس في النشاط الفقهي غير هذا النشاط لكفي.

الدرس الثالث والثلاثون:

تلخيص مزايا الدور الخامس من أدوار التشريع الإسلامي، والدور السادس

خلاصة مزايا الدور الخامس:

هو الدور المتألق في تاريخ التشريع الاسلامي وهو:

- 1. أولاً يمتاز بالاجتهاد: ومعظم علمائه مجتهدون ضمن قواعد أصول الفقه التي اكتشفت ودونت في الدور الرابع، وأول من دونما الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.
- 7. وأيضاً يمتاز بظهور قواعد الفقه الإسلامي: ولم تكن موجودة من قبل وهي: عبارة عن كلمات مختصرة تنضوي تحتها جزئيات أحكام كثيرة، وقد ذكرنا أمثلة عنها. وقد ألّفت في القواعد الفقهية مؤلفات خاصة بها وهذا من أبرز ما يمتاز به هذا الدور.
- ٣. أيضاً يمتاز بالمرجحين: ففيه فقهاء شأفهم ترجيح رأياً على رأي بالنسبة لما دوّن في الدور الرابع، رأيان في مذهب الإمام أحمد مثلاً يأتي من الأثمة من يرجح أحد آرائه ... الإمام النووي مثلاً يسمى مرجّح مذهب الشافعي.

^{&#}x27; بعض الناس يسميها النظريات الفقهية، والأولى تسميتها بما سماها العلماء السابقين.

تنبيه: للمرحلة الزمنية التي بين الدور الخامس والسادس:

مدتها الزمنية:

توجد فترة لم يتكلم عنها الشيخ البوطي رحمه الله، وهي من حين سقوط الدّولة العباسية سنة ٢٥٦ هـ، إلى القرن الثالث عشر سنة ١٢٠٠ هـ، أي لمدة ٥ قرون و ٥٠ عام، وهذه الفترة تُلحق بالدور الخامس، لأن الدّين حُفِظَ فيها بواسطة العلماء الثابتين على منهج السّلف في الأدوار السابقة، بأسانيدهم المتصلة.

الدور السادس والأخير: وهو دور الدسائس التي تمت محاولة اقحامها في بنيان الفقه الإسلامي

مدته الزمنية:

هذا الدور يؤرخ له علماء التشريع الإسلامي، بدايته من أواخر القرن الثالث عشر حوالي سنة ١٢٠٠ هـ، إلى يومنا هذا سنة ١٤٣٤ هـ، أي لمدة قرنين.

كثيرون ينعتون هذا الدور السادس بدور النهضة الفقهية ودور الرجوع إلى الاجتهاد ودور اليقظة يعني أن هذا الدور أفضل من الذي سبقه، كثير من الكتّاب الجدد ينعتون هذا الدور بهذا الشكل. أنا أضع للدور السادس العنوان التالي:

دور الدسائس التي تمت محاولة اقحامها في بنيان الفقه الإسلامي عن طريق أشخاص معينين خلافاً لمن يقولون غير ذلك ..

والحقيقة عندما نقول أن الدور السادس يبدأ من أواخر القرن الثالث عشر الهجري، نحد أن في هذه الفترة كان يوجد علماء أفذاذ: كالشيخ زكريا الأنصاري، والإمام ابن عابدين، والإمام الباجوري،

وكان هنالك فقهاء جاؤوا على إثرهم، والواقع أن الذين كتبوا عن الدور السادس ما تحدثوا عنهم ولم يسلطوا الأضواء عليهم.

هناك عدد من المشايخ الذين برزوا في هذا الدور ولكنهم حرفوا وبدلوا ومنهم:

- ١. الشيخ جمال الدين الأفغاني.
- ٢. الشيخ محمد عبده المصري.

وغيرهم شيوخ كُثر سلطة عليهم الأضواء لموافقتهم لبرامج الغزو الفكري ضد المسلمين ..

من الأفكار الخطيرة التي يدعون إليها الضلاليون:

١. تجديد أصول الفقه، التي أسسها أئمة المذاهب الأربعة، لأنها صارت قديمة ونحتاج إلى تجديدها في هذا العصر.

الدرس الرابع والثلاثون:

الظواهر السِّلبية في الدور السادس من أدوار التشريع الإسلامي:

بعد الفتوحات الاسلامية اندلقت الفلسفة اليونانية إلى المجتمعات الإسلامية، وجاء المعتزلة درسوا الفلسفة اليونانية وانبهروا بها كمثل إنسان حالس في غرفة مظلمة بعيدة عن الشمس وفحأة خرج إلى الشمس المنيرة في وضح النهار، لكن أرسل الله سبحانه من علماء المسلمين من درسوا هذه الفلسفة اليونانية وبينوا بطلانها كالإمام الغزالي والإمام الرازي رحمهم الله.

فأوضحوا الشبهات التي سرت عن طرق الاعتزال إلى العقيدة الإسلامية، وعاد الإسلام الذي بُعث به رسول الله عليه الصلاة والسلام صافياً عن الشوائب .. أقول هذا لكي تتبينوا دجل من يتظاهر بالدين والغيرة عليه ويريد تغيير قواعد أصول الفقه، وغاية هؤلاء الدجالين تغيير وتبديل بالشريعة الاسلامية.

في قواعد أصول الفقه بحث عن المصالح وكيف أن الشريعة الاسلامية تدور على محور مصالح العباد، وذلك في الحديث عن المصالح المرسلة، فالعلماء كلهم اتفقوا على أن مقاصد الشريعة الاسلامية التي تدور عليها أحكام الشريعة كلها .. خمسة لا مزيد عليها هي:

أولاً: (مقصد الدين، يليه الحياة، يليه العقل، يليه النسل، يليه المال..)

لو أنك قرأت أحكام الشريعة الاسلامية في المعاملات والعبادات والأحكام الدولية وغيرها لن تجد حكما إلا وهو خادم لأحد هذه المقاصد الخمسة، منهم من جاء وقال: أنه لا بد من إضافة مقصد سادس، وإن سألته ما هو يقول لك: أن العدل هو المقصد السادس، إذاً يقول بذلك أن الدين لا عدل فيه .. نقول: إن أول مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية هو الدين ومعنى ذلك: أن أحكام الشريعة الإسلامية ترعى الدين في ضرورياته عقيدة وسلوكاً وخُلقاً، لأن الدين هو أساس العدل والعدل يأتي من الأحكام، فالقانون الإسلامي أي الأحكام المنزلة مِن عند الله عز وجل هي التي ترعى العدل ..

لو أن الشريعة الإسلامية كانت تحوي مقصداً آخر غير المقاصد الخمسة لكان أولئك العلماء أسرع إلى اكتشافها من هؤلاء الحمقى، هذا تلاعب بالدين، وهو جانب من الجوانب السلبية التي ينبغي أن نتنبه إليها حتى نحذر منها، وإن كان في الكتاب والباحثين من يصورون أن هذه الجوانب إيجابية، لا تخفى نفسها والجوانب السلبية معروفة.

فالتحديد الذي عناه رسول الله عليه الصلاة والسلام ليس مطلوباً فقط بل هو واقع فعلاً: (إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَنِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا) والعلماء قالوا: أن كلمة – مَن – ليست لفرد وإنما لمجموعة، فقد يبعث مئة واحد وكلهم يتعاونون في إزالة الغبش عن دين الله عز وجل وإزالة غلو الغالين .. إذاً كلمة (مَن) لا تعنى فرد ..

من الظواهر السلبية في هذا الدور تمكن أعداد كثيرة من علماء السوء وممن لسوا بعلماء لتظليل الناس وتزييف الحقائق:

ا رواه أبو داوود

الدرس الخامس والثلاثون:

كلمة بمناسبة ذكرى مولد المصطفى والمناه في شهر ربيع أول:

ما الذي يقرره سلطان الحب عندمي تأتي هذه الذكري؟ وما هي حقوق هذا الحب في أعناقنا:

لا يمكن أن تعيش حياتك بدون حب، والذي يفقد الحب إنسان شاذ، بغض النظر عن الشيء الذي تحبه، ولله في ذلك حكمة باهرة، ثم إن الإنسان يعلو ويهبط بحسب ما يحب.

ونحن أنعم الله علينا بنعمة عظيمة جدا جدا وهي أن حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وملأ عقولنا باليقين بوحدانية الله وبالحبة لرسول الله، ثم أفاض ذلك على قلوبنا، أي أن إيماننا بالله وبنبوة رسول الله يقوم على دعامتين: العقل الذي يدرك، والقلب الذي يحب، فقد ورد في الحديث: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ المُمْعِينَ ١) وفي رواية: (أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ)، ومن باب الشكر لله إظهار هذا الحب، الهداية التي نتمتع ونتنعم بما سببها رسول الله والله والله والله والله على الله ذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُ مِّنَ أَنفُسِكُمْ عَزِينُ عَلَيْهِ مَا عَنِتُهُمْ الله ذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُ مِّنَ أَنفُسِكُمْ عَزِينُ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ

حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُ وفُ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٢٨.

ماذا يصنع الحب بالإنسان؟: الحب يجعلك تتعلق بالمحبوب وكل ما يوصلك ويذكرك بالمحبوب.

أمر على الديار ديار ليلى *** أُقَبِّلُ ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي *** ولكن حب من سكن الديار

حبنا لرسول الله هو فرع لحبنا لله، وحبنا هذا لرسول الله يدعونا إلى أن نحب كل ما يدعونا إليه رسول الله شئنا أم أبينا، من طبيعة العقل أنه يكون خاضع لسلطان الحب،

ا رواه البخاري.

مسند الإمام أحمد حنبل.

الإنسان لا يستطيع أن يؤدي كافة حقق الحب، لماذا؟ لأن ذلك سيجعل العبودية تغيب، والشعور بالضعف يغيب، معاد سيلتجأ إلى الله بعد ذلك. لكن الحب يجعلك تشعر بالحاجة والضعف فتطلب ربك أن يكرمك بإدراك محبوبك.

الدرس السادس والثلاثون:

الدور السادس من أدوار التشريع الإسلامي والظواهر السلبية له تتمة الظواهر السّلبيّة في الدور السادس:

وجود شيء اسمه الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين:

وهذا شيء يسر ويثلج الصدر فيما يظهر، لكن عند التدقيق في الأمر، يجد أنه يظم علماء وأنصاف العلماء، وفيه من ليس لهم علاقة بالفقه الإسلامي، محامون مؤرخون وباحثون، وكلهم محشورون تحت مسمى العلماء المسلمين، وموقعه في أوروبا، وليس في أي صقع من عالمنا الإسلامي، ليست المشكلة في الموقع إن وجدة وحدة منطلقة بانضباط شرعي صحيح، والواقع أن هذا التحاد وضعته جماعة حزبية، وبالتالي صار التأثير في هذا الاتحاد حزبي وليس شرعي، ومهمات هذا الاتحاد الاجتهاد وإصدار الفتاوى.

رأيت أحد الفضلاء قد انضم إلى ذلك الاتحاد، فسألته ما هو تخصصك العلمي، فقال: أنا عالم في الفلسفة، فقلت له: ولماذا انضممت، فقال: لكي أفتي في مسائل العقيدة، فقلت له: الذي نعرفه أن الفتوى تكون في مسائل الفقه وليس في العقيدة، لأن أمور الاعتقاد واضحة ومقطوع بها. وإنما وضع معهم لأن له تماء حزبي معهم.

طريقة الانتهاء لنتائج البحث الذي يُطرح تكون عن طريق رفع الأيدي، يعني طريقة ديمقراطية، فإذا كان عدد الذين أفتوا بالوجوب خمسة والذين أفتوا بالإباحة سبعة إذاً النتيجة الإباحة، هذا الشيء غير موجود عندنا في مناهج الشريعة الإسلامية. إذا كانت المسألة بما يتعلق بأمور إدارية، من الممكن أن تصطلح الدولة أو – الجهة – بطريقة التسويط هذه، بحيث نرجع إلى الأكثرية من الشعب أو الجماعة، لكن عندما نريد أن نعلم حكم الله في مسألة لا يكون بطريقة ذلك عدد المسوطين فيها، هذه مسألة فقهية لها قواعد في الاجتهاد والاستنباط بوفق تسير الأمور الفقهية.

وهذا الاتحاد مطلوب منه أن يجتهد في أمور جديدة وأمور ليست جديدة لكن لأناس يعيشون في المجتمعات الغربية أمريكا وأوروبا، ثم إن هذا الاتحاد استولد ما يسمى بفقه الأقليات، وهو يعني: أن الذين يعيشون في الغرب لأنهم أقلية في العدد، ينبغي أن تكون لهم أحكام مفصلة على قدر الذين

الشريعة الإسلامية عالمية لا تعرف شيء اسمه فقه أقليات، أحكامها ثابتة لا وطن لها، كل ما نطق به كتاب الله وسنة رسوله من وجوب أو تحريم أو إباحة هي حكم في كل مكان وكل زمان، موجود لدينا القواعد الفقهية ومنها: إذا اشتد الأمر اتسع، وقاعدة: الضرورات تبيح المحظورات، لكنها عامة على المسلمين في كل مكان وليس في مكان دون مكان. فقد يجوز الاقتراض الربوي من باب الضرورات تبيح المحظورات لكونه إن لم يقترض فسيسكن في الشارع، وهذا حكم عام في كل مكان، لكن الضرورة هي ما يعرضه للهلاك. وفوق الضرورة: الحاجة، وهي عبارة عن رغبة في الشيء دون الضرورة، وهذا لا تأتي فيه رخصة بضرورة أبدا. والكافرة إذا أسلمت بشكل آلي تنفصل عن زوجها، وقد نص الفقهاء بأنه من الممكن أن يجمع بينهما سكن واحد لأجل مصلحة الأبناء ولكن دون أن يكون بينهما جماع، فقط لمصلحة الأبناء. فقه الأقليات يعني خلق شرائع الإسلام شيء

فشيء. لم نذكر ذلك إلا من باب الانتصار لدين الله والخوف على شريعة، ولا مفاوضة في ذلك، موجود لدينا شيء اسمه فقه الضرورات وله ضوابطه.

الدرس السابع والثلاثون:

ظواهر الدور السادس الإيجابية: الاجتهاد الجماعي والمجامع الفقهية

الجوانب الإيجابية في الدور السادس:

الاجتماد الجماعي الممثل في المجامع الفقمية:

الاجتهاد شيء مؤصل في الشريعة وله ضوابطه، والناس متفاوتون في العلم والدراية وليس لكل إنسان القدرة على الاجتهاد فيهم المشغول بحرف الدنيا وفيهم العلماء، وفي كل عصر يهيأ الله علماء أفذاذ متفرغين لخدمة الشريعة، والجهة المشغولة عليهم بالرجوع إلى العلماء لمعرفة أحكام دينهم، وفي هذا العصر لا نكاد أن نجد من بلغ رتبة الاجتهاد لا المطلق وحتى لا يكاد يوجد من يجتهد بالاجتهاد المقيد بمذهب معين من المذاهب الأربعة، لأن من شروط الاجتهاد: أن يكون ذا بصيرة باللغة العربية، وأن يكون ذا دراية واسعة بحديث رسول الله الله دراية ورواية، وأن يحيط علما أقل شيء بآيات الأحكام، وأن يكون بصيرا باجتهادات الصحابة فيما يتعلق بالشريعة، وتفسير قواعد تفسير النصوص أي علم أصول الفقه. لاجتهادات السابقين مدونات موجودة، لكن في هذا العصر تولدت فيه مشكلات جديدة لم موجودة من قبل، ولابد من معرفة حكم الله فيها، شيء منها يتعلق بحيات الإنسان مثل: الموت الدماغي، هل يعتبر موت ولا مو موت؟ وكذلك: نقل الأعضاء من شخص إلى شخص، هل هو جائز أم لا؟ في أمور خطيرة متعلقة بالاقتصاد توجد نظم متعلقة بالمعاملات المالية لم تكن موجودة من قبل، وغير ذلك من المستجدات، وهي تحتاج لبيان حكم الله فيها، وإذا قعد المسلمون عن هذا يكونون كلهم آثمون. في الدور السابق سخر الله أعداد من الجتهدين كفوا المسلمين حاجتهم في زمانهم، وقد تأخر العلم في هذا الدور السادس، والحل هو الاجتهاد الجماعي، فإذا اجتمع علماء هذا الزمان للتباحث في أمر ما فإن الضعف الحاصل ينجبر بمجموع علماء هذا العصر، الأزهر ممن بادر بفكرة الاجتهاد الجماعي، ووجد نتيجة لهذه الحاجة ما يسمى المجامع الفقهية، في الأزهر يوجد مجمع البحوث الفقهية ولهم اجتماعات دورية، يجتمعون للنظر فيما يستجد، كذلك منظمة المؤتمر الإسلامي، هي كذلك تبنت مجمع الفقه في جدة، وله اجتماع دوري بحسب الحاجة، ومجمع فقهي منبئق من رابطة العالم الإسلامي في المدينة المنورة، كذلك مجمع فقهي علمي في باكستان. هذه مجامع متعددة تجمع علماء من أفضل العلماء علما واستقامة فيما نعلم. تقدم المسالة إلى أحد هذه المجامع فينظر فيها أعضاء هذا المجمع فيبحثون المسألة بحثا شرعيا فيصدرون حكما شرعيا صحيحا، وربما احتاجت المسالة إلى إرجاءها حتى يتبين الحكم الصحيح فيها.

ونحن نجد اليوم قرارات كثيرة مدونة لهذه المجامع تحل كثير من الإشكالات فيما يتعلق بالمستجدات، من أمثلة ذلك، مسالة موت الدماغ، الأطباء يعتبرون ذلك موتا نمائيا، فهل يمكن نقل قلبه لشخص نؤمل سلامته من مرضه، وبعد الدراسة والتمحيص، أجابت المجامع الفقهية بأن موت الدماغ هو نذير موت محقق وليس موتا حقيقيا. مسالة ثانية: الإنسان في إذا كان في حالة النزع بسكرات الموت، فهل يجوز أن نكفنه لأن موته محقق، الجواب لا يجوز حتى يتم موته. مسالة ثانية: مبدأ سد الذرائع، يحص أن الأطباء قد يخطئون في التشخيص، فلذلك لا يحكم بالموت النهائي بمجرد الموت الدماغي. مسألة نقل الأعضاء هذا لم يكن موجود من قبل، نقل العضو من حي إلى حي، ونقل العضو من أن الإيثار، متى يجوز أو العضو من ميت إلى حي، ونقل العضو من أن الإعدام، مثلا: الإيثار، متى يجوز أو العضو من ميت إلى حي، ونقل العضو من إنسان محكوم عليه بالإعدام، مثلا: الإيثار، متى يجوز أو يوجد شيء اسمه اقتصاد السلامي، وكثيرون منهم كان يعتقد بأنه لا يوجد شيء اسمه اقتصاد السلامي، وكانوا يسخرون مننا إذا تكلمنا عن ذلك، ولهذا التصور سبب وهو: أنه ليس لهم خبرة في الفقه الإسلامي، والجاهلون لأهل العلم أعداء، وكان المفترض أن يقول أن لا أعرف ويسأل عنه، والحقيقة أن فقهاء المسلمين في هذا العصر تنبه الكثير من الناس إلى أن

الاقتصاد الاسلامي هو المنقذ للاقتصاد العالمي، وقد حصلت اعترافات كثيرة في مؤتمرات عالمية، ولي ملاحظة على هذا الكلام وهي: أن التجائهم إلى حلول الاقتصاد الاسلامي وهم على ما هم عليه لن يحل المشكلة، لأن الاقتصاد الاسلامي: مع قواعده الدقيقة لكنه يعتمد على الأخلاق في التعامل، والأخلاق في التعامل تنهض على الاعتقاد، وبدون عقيدة ما في أخلاق، عقيدة سليمة تُنشأ أخلاقا عند ذلك يمكن أن يقوم تعامل راقي وفق مبادئ الاقتصاد الاسلامي، ومهما أخذتم بقواعد الاقتصاد الاسلامي بدون ذلك فلن تنجحوا في حل المشاكل، هناك توجد محاولات لمعالجات وفق الاقتصاد الاسلامي، ولكنها لم تنجح ليس لنقص فيها، ولكن هناك من يضع العصي في العجلات، – أي يعرقلها – وقد جمعت المجامع الفقهية قواعد الاقتصاد الاسلامي بدقة، للأسف المصارف الاسلامية تدار من قبل أناس بنية سيئة، وهم يجهلون الفقه الإسلامي.

ماهي رسالة الجحامع الفقهية مقارنة بما يسمى فقه الأقليات؟.

الدرس الثامن والثلاثون:

الظواهر الإيجابية للدور السادس من أدوار تاريخ التشريع الإسلامي (الدرس الأخير) تتمة عن موضوع الاقتصاد الإسلامي، وتجربة أحد المصريين على مشروع قائم على قواعد الاقتصاد الإسلامي، أثبتت نجاحها ببراعة في الوقت المعصر، ولكن في نهاية المطاف أبعد وأقصي عن مصر كلها.

بقى مسألة واحدة تدخل في الإيجابيات:

وجود وظيفة الإفتاء في البلاد العربية والإسلامية:

من المظاهر الإيجابية في حدمة الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي من الأهمية بمكان لأن مُعظم النّاس في المجتمعات الإسلامية إما عوام أو مثقفين، لكنهم لا يستطيعون أن يعرفوا حكم الله تعالى

في الكثير من المسائل فلا بد من رجوعهم إلى المفتي وعندما يكون المفتي عالماً وفقيها وورعاً وخائفاً من الله عز وجل .. أنعِم بهذه الوظيفة وهي من الأهمية بمكان، هذه هي وظيفة الإفتاء.

شروط المفتي:

لقد تحدث علماء الشريعة الإسلامية عن الفتوى وعن شروط المفتي، والعلماء الجدد أيضاً كتبوا في هذا فباختصار نقول: أن المفتي في الأصل ينبغي أن يكون مجتهداً لا يقال عنه مفت إلا إذا وصل إلى درجة الاجتهاد، ولا يشترط الاجتهاد المطلق وإنما ضمن مذهبه، فإن كان شافعي المذهب لكنه على رأي الشافعي على رأي أبي حنيفة ورأي أبي حنيفة على الشافعي فهذا اسمه مجتهداً في المذهب، هكذا ينبغى للمفتى أن يكون.

قالوا: فإن لم يتيسر وجود الجحتهد الذي نريد أن نبوّئه مركز الفتوى، نأتي بإنسان في مكانه لكنه في الحقيقة لا يقال عنه مفتِ حقيقة وإنما نسميه مفتياً مجازاً لأنه في الحقيقة ناقل.

يسأل زيد من الناس المفتي في الدولة عن موضوع ما فيراجع هذه المسألة في المراجع المعروفة ويكتب له الجواب ثم يقول: أخيراً فيما نقله كما ذكره فلان في كتابه، إذاً هذا يسمى مفتياً لكنه ليس كالسابقين أي باجتهادهم.

مجتمعنا اليوم فيه هذه الوظيفة وهذا شيء حيد، لكن لا يُتصور أن ما يسمى اليوم مفتياً كالذين كانوا من قبل مجتهدين، هؤلاء في أحسن الأحوال ينقلون عمّن سبقهم في الفتوى.

وفي الواقع أن هذه الوظيفة في البلاد العربية تحولت إلى وظيفة شكلية، لأن المفتي في كثير من الأحيان يتحرك في نطاق سياسة الدولة التي هو فيها، ومن ثمّ يتبوأ الفتوى من ليس أهلا لها، وقد تمر فترة ولا يسأله أحد، وفي كثير من الأحيان لا يكون فقيها، وهذا ينبغي معالجته لأن المفتي مكلف بأن ينقل حكم الله فيما غُمّ عليهم، فهو مؤتمنا على شرع الله، المفتي ينبغي أن يبين شرع الله وإذا رأى منكر لا بد أن ينكر.

قاعدة تقول: مذهبك مذهب من يفتيك، أي إذا سألت عالم حنفي وجاوبك على الحنفي فتعمل عالم عالم الحنفي فتعمل عالم عالم مذهبك في بقية أمور أمورك.

الفرق بين الفتوى والقضاء:

المفتى: مُعْلِمٌ لحكم الله عز وجل عندما يُسأل عنه، وليس له أن يتجاوز هذا الحد.

أما القاضي: فهو مُنقّذ، فالقاضي يقضي ولا يفتي، فإن جاء إليه خصمان يسمع ويدقق ويحقق ورجما رجع للمفتي حتى يعلم الحكم، وحين يستبين الحكم أمامه يعلن الحكم أنه كذا وكذا، وعندئذ يلتزم الخصمان بهذا الحكم.

وقد استقر القضاء وأصبح منفصلاً عن الدولة في عصر هارون الرشيد، وهذه من مناقب هارون الرشيد وما يثنى عليه بسببه، فقد كان أول من أوجد منصب قاضي القضاة، ولا علاقة للقضاء إلا بحذه القمة، فقد يحكم القاضي على الحاكم وعلى الوزراء فلا سلطة لهم على القضاء نحائياً، فهذا الفصل بين القضاء وبين الدولة وإيجاد كيان للقضاء يتمثل في قاضي القضاة ثم في القضاة الذين هم تحت إمرته الذي أول من فعل ذلك هارون الرشيد رحمه الله تعالى.

الموضوع الجديد الذي ألهمني الله أن ندخل فيه بعد هذا:

هو إعادة برنامج قديم سبق أن قدمته في حلقات بعنوان: (يغالطونك إذ يقولون ..)، ناقشت فيه بعض الإشكالات التي تثار في هذا الزمان ومن تلك المواضيع على سبيل المثال: (الدولة الإسلامية لم تعش أكثر من ثلاثين عام)، (نظام الحكم الإسلامي يتناقض مع الديمقراطية)، (العلمانية هي الحل)، (القرآن يُغني عن السنة)، (المرأة مهضومة الحقوق في الإسلام)، (التقديس يعوق الإنسان العاقل عن حرية البحث والنظر)، (الإيمان بالقضاء والقدر سبب التواكل)، (مجالس الذكر عبارة عن بدعة وخروج عن منهج السلف) .. إلخ

والحمد لله رب العالمين ..

المحتويات

١	همية دراسة تاريخ التشريع الاسلامي
۲	الفائدة المتوخّاة الأساسية من دراسة تاريخ التشريع:
۲	أيها أدق أن نقول تاريخ الفقه الإسلامي أم تاريخ التشريع الإسلامي؟:
۲	الفرق بين التشريع الوضعي والسياوي:
سم إلى	الوحي هو المصدر الأساسي للتشريع الرباني والينبوع الأول للشريعة الإسلامية، وينقد
٣	قسمين:
٣	كيف تتحقق العدالة الدقيقة المطلقة بين الناس؟
٣	التشريع في مكة والمدينة:
。	دوار التّشريع الإسلامي وأقسامه:
٥	وهي تتلخص في ستة أدوار لتاريخ التشريع الإسلامي:
٥	الدور الأول: عصر المصطفى عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام معه ﷺ
o	مدته الزمنية:
7	والوحي الذي كان يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقسم إلى قسمين:
<i>V</i>	هل كان هنالك اجتهاد في هذا العصر؟
Λ	هل القرآن والسنة في مرتبة واحدة وعلى مستوى واحد أم القرآن مقدم على السنة؟
9	الشطر الثاني من الدور الأول: وهو عصر الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ
9	والفرق بين الشطرين من هذا الدور؟
٩	أسباب وجود هذا الخلاف:

بة أم مظهر فقر وإشكال؟	الاختلاف مظهر غنئً في الشريعة الاسلامي
عابة (في زمن الخلفاء الراشدين) ﴿ بعد وفاة النبي ﷺ	الدور الثاني من أدوار التشريع: عصر الصح
17	
1 r	مدته الزمنية:
17	الجديد في هذا الدور بالنسبة للقرآن:
17	
17	
صر:	
محابة فيها:	من أمثلة المسائل الاجتهادية واختلاف الص
ة عن بعض في الأحكام الاجتهادية:	وندرك بذلك أن أسباب اختلاف الصحابة
10	مَن هم أشهر المفتين في الدور الثاني؟:
: عصر (نشأت مدرستيّ أهل الحديث في الحجاز، وأهل	الدور الثالث من أدوار التشريع الإسلامي:
اشدة	الرأي في العراق)، في نهايات فترة الخلافة الر
1 <i>V</i>	مدته الزمنية:
ريكن مو جو داً من قبل:	الخصائص التي برزت في هذا الدور مماله
14	يمتاز الدور الثالث بأربع خصائص وهي
19	الخاصة الأولى: ظهور الفرق:
۲٠	أولا – فرقة الخوارج:
	كيف نشئ الخوارج وما هو سبب نشأتم
Y1	خلاصة عقائد وأحكام الخوارج:
*1	ثاناً — في قة الشبعة اليافضة:

71	نشأة الشيعة:
YY:	تتلخص أفكار الشيعة التي ميزتهم عن غيرهم في النقاط التالية
rr	الخاصة الثانية: شيوع رواية الحديث:
۲۳	العوامل التي ساعدت على كثرة الرواية عن المصطفى عليه:
Υξ	الخاصة الثالثة: ظهور الوضاعين:
صلاة السلام.؟؟	العوامل التي جعلت هؤلاء الناس يدسون على رسول الله عليه الع
	إذاً عوامل الوضع هي:
ي العراق:	الخاصة الرابعة: مدرسة الحديث في الحجاز ومدرسة الرأي في
	أما عوامل ظهور مدرسة الحجاز هي:
	عوامل جنوح علماء العراق للرأي؟
	الجامع المشترك بين المدرستين - مدرسة الرأي والحديث -:
۲٧	من بعض علماء أهل الحديث:
۲٧	بعض علماء أهل الرأي:
<i>YA</i>	الخاصة الخامسة: تدوين الحديث:
) لاتساع العلوم الإسلامية والبشرية	الدور الرابع من أدوار التشريع الإسلامي: وهو (العصر الذهبي
ا، بنُضِّج منهج أهل السنة والجماعة	فيه، وتقارب مدرستي أهل الحديث وأهل الرأي، حتى اتحدت
٣٠	
m	مدته الزمنية:
	من أهم ميزات هذا الدور:
	شرح أولاً: النشاط العلمي واتساعه في الدور الرابع:
	سرح اولا . النشاط العلمي الذي تحلّ في هذا العصر ؟
, ,	حوالاتار النساح المعليم النادي مين والمعار المعلم

٣٢	أولاً: التفسير:
٣٣	ثانياً: الحديث:
	ثالثاً: الفقه:
٣٤	الإمام أبي حنيفة النعمان:
٣٤	شيوخ الإمام أبو حنيفة:
ومالك وأحمد:٣٦	الاجتهادات التي تميز بها أبو حنيفة عن اجتهادات الأئمة الشافعي
	السبب في انتشار مذهب أبي حنيفة:
٣٧	أبرز تلامذته:
الراشدين:	موقف علماء آل البيت الذين لا يأخذ الشيعة إلا منهم من الخلفاء
٣٩	الإمام مالك:
٣٩	شيوخ الإِمام مالك:
٤١	الابتلاء الذي وقع للإمام مالك:
٤١	منهج الإمام مالك في الاجتهاد:
٤٣	أسباب الخلاف بين الإمام مالك وغيره من الفقهاء هي:
٤٦	أبرز الكتب التي دوّنها الإمام مالك:
شمال أفريقيا؟:	والسؤال لماذا انتشر مذهب الإمام مالك في أماكن كثيرة خصوصا ث
٤٦	الإمام الشافعي:
٤٨	شيوخ الإمام الشافعي:
٥٠	موقف الإمام الشافعي من الخلافة:
01	موقف الشافعي من علم الكلام؟:
ο ξ	حياة الإمام الشافعي في مصر إلى وفاته بها:
٥٥	أما أصحاب الإمام الشافعي وتلامذته:

انتشار المذاهب الشافعي:
موقف الإمام الشافعي من علم الكلام:
الإمام أحمد حنبل:
رحلات الإمام أحمد حنبل العلمية:
طريقته في التحديث والفتوى:
أما آراؤه في العقيدة الإسلامية:
أما موقف الإمام أحمد في السياسة:
أشهر عمل خَلَّفَه الإمام أحمد بن حنبل:
إذا الحديث الضعيف يروئ لكن بشروط:
هل كان الإمام أحمد فقيهاً أم كان محدثاً؟
أبرز صفات الإمام أحمد بن حنبل:
شيوخ الإمام أحمد بن حنبل:
وبهذه المناسبة نذكر بعض مناقب سفيان الثوري:
أما عبد الله بن المبارك:
ما هي الأصول الاجتهادية (استنباط الأحكام) التي اعتمدها الإمام أحمد؟
موقف الأئمة من مبدأ سد الذرائع كمصدر تشريعي:
عن المحنة التي ابتلي بها الإمام أحمد:
ما حكم تقليد المسلم للمذاهب الأربعة؟ وهل المسلم واجبُهُ أن يأخذ من القرآن مباشرة ومن سنة رسول
الله عليه الصلاة والسلام أياً كان أم الأمر فيه تفصيل؟
متى بدأت المذاهب والاختلافات الفقهية؟:
هل هناك آفات - عيوب - لحقت بالمذاهب الأربعة التي تحدثنا عنها؟

أت مذاهب جديدة، وفيه	الدور الخامس من أدوار التشريع الإسلامي: وهو عصر توقفت فيه نشأ
ووجود علماء مجتهدين في	انتشار التقيُّد والتّقليد للمذاهب المعتبرة في الدور الرابع للأفراد والدّول،
٧٨	كل مذهب منها ومقارنين بينها
νλ	مدته الزمنية:
	خصائص الدور الخامس:
	نتكلم عن جريمة حصلت، ونخاطب بلك الأسرة الإنسانية جمعاء وه
	علهاء الدور الخامس ومرتبتهم العلمية:
	ومن أبرزها مزايا – خصائص – الدور الخامس:
	أولا: تعليل الأحكام:
ر اجتهادهم:۸۱	المزية الثانية لهذا الدور: أن هؤ لاء الفقهاء أخذوا يرجحون قولاً على قول فظه
۸۲	المزية الثالثة: شرح المؤلفات الأئمة السابقين:
۸۲	وهناك مزية أخرى: تدوين ما يسمى بقواعد الفقه:
	بقي سؤالاً: ما الفرق بين قواعد تفسير النصوص وبين القواعد الفقهية؟
	من مظاهر هذا الدور ايضاً: استقلال الناس باتباع المذاهب الأربعة:
	الإمام أبو الحسن الأشعري:
	من خصائص الدور الخامس: أن هناك مذاهب أخرى غير المذاهب الأربعة
	يعد الناس يعلمون مصيرها:
	ومن خصائص هذا الدور أيضاً أن الفتوى والقضاء أصبح مختصاً في مذهب.
	ومن خصائص هذا الدور أن الدولة أيضاً أصبحت تتبنى واحداً من هذه المذا
	م: أوثلة عالياه والخامس :

ومن خصائص هذا العصر ومن مزايا الخلافة العثمانية: ظهور مجلة الأحكام العدلية في أثناء الخلافة
العثمانية ومجلة أحكام العائلة:
خلاصة مزايا الدور الخامس:
تنبيه: للمرحلة الزمنية التي بين الدور الخامس والسادس:
مدتها الزمنية:
الدور السادس والأخير: وهو دور الدسائس التي تمت محاولةُ اقحامها في بنيان الفقه الإسلامي .٨٨
مدته الزمنية:
الظواهر السِّلبية في الدور السادس من أدوار التشريع الإسلامي:
من الظواهر السلبية في هذا الدور تمكن أعداد كثيرة من علماء السوء وممن لسوا بعلماء لتظليل الناس
وتزييف الحقائق:
كلمة بمناسبة ذكري مولد المصطفى الله في شهر ربيع أول:
ما الذي يقرره سلطان الحب عندمي تأتي هذه الذكرئ؟ وما هي حقوق هذا الحب في أعناقنا:
وجود شيء اسمه الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين:
الجوانب الإيجابية في الدور السادس:
الاجتهاد الجماعي الممثل في المجامع الفقهية:
وجود وظيفة الإفتاء في البلاد العربية والإسلامية:
شروط المفتي:
الفرق بين الفتوى والقضاء:
لموضوع الجديد الذي ألهمني الله أن ندخل فيه بعد هذا:
۱۰۰